غابرييل غارسيا ماركيز

مئة عام من العزلة







(١٠)

بعد سنين طويلة، تذكر أورليانو الثاني، وهو على فراش الموت، عصر ذلك اليوم المطير من شهر حزيران (يونيه)، عندما دخل غرفة النوم ليرى ابنه الأول. وعلى الرغم من أن الطفل كان هزيلاً وبكاء، ولا تبدو عليه أي من ملامح آل بوينديا، فلم يتردد لحظة في الاسم الذي يطلقه عليه. فقال :

ـ سوف ندعوه خوزيه أركاديو(١).

ووافقت زوجته فيرناندا ديل كاربيو الجميلة، التي كان قد تزوجها منذ عام مضى. أما أورسولا فلم تتمكن من إخفاء شعورها بقلق غامض. فخلال تاريخ العائلة الطويل، ونتيجة لتكرار الأسماء بشكل ملحّ، تولدت لديها مشاعر، أوصلتها إلى نتائج كانت تظن أنها محتومة. فكل من كان يحمل اسم أورليانو كان انطوائياً مغلقاً على ذاته ونافذ البصيرة. وكل من حمل اسم خوزيه أركاديو كان عصبياً ولكنه رقيق موسوم بالمأساة، ما عدا اثنين لم يمكن تصنيفهما، وهما خوزيه أركاديو الثاني وأورليانو الثاني. فقد كانا، في طفولتهما متشابهين، كثيري الحركة والأذى، حتى إن أمهما سانتا صوفيا لم تكن تستطيع أن تميز أحدهما من الآخر. ولذلك عمدت أمارانتا، يوم تعميدهما، إلى وضع سوار في يد كل منهما، عليه الحروف الأولى من اسمه، وألبستهما ثياباً مختلفة.

(١) باسم جده، الرجل القوي.

ولكنهما عندما بدأ الذهاب إلى المدرسة، جعلا يتبادلان السوارين والثياب، ويدعو كل منهما الآخر باسمه. وحار في أمرهما معلم المدرسة، ملكيور إسكالونا، الذي اعتاد أن يميز خوزيه أركاديو الثاني بقميصه الأخضر. فلم يدر بأية ملائكة يستجير حين اكتشف أنه يلبس سوار أورليانو الثاني، وأنّ الآخر يقول، كذلك، أن اسمه هو أورليانو الثاني، على الرغم من أنه كان يلبس القميص الأبيض والسوار الذي يحمل اسم خوزيه أركاديو الثاني. ومنذئذ لم يعد يميز أحدهما من الآخر بشكل يقيني. بل إن أورسولا كانت تتساءل، بعد أن كبرا، وفرقت بين ملامحهما الحياة، ما إذا كانا هما نفساهما قد أخطآ، ذات مرة، في اللعبة التي كانا يلعبانها، فاتخذ الواحد منهما اسم الآخر إلى الأبد. وقد كانا، حتى بلغا سن الرشد، كأنهما آلتان موقوتتان. فكانا يستيقظان في اللحظة ذاتها، ويحسان، في اللحظة ذاتها، بالرغبة في قضاء حاجاتهما، وتصيبهما الانحرافات الصحية ذاتها، بل كانا يريان الأحلام ذاتها.

كان أهل البيت يظنون أنهما ينسقان حركاتهما، فيما بينهما، لأنهما يستعذبان إيقاع الناس في الخطأ. ولم يدركوا حقيقة واقعهما إلا حين قدمت لهما أمهما الليمون، فأكد الثاني، قبل أن يذوقها الأول، أنها كانت بلا سكر. وروت سانتا صوفيا (القديسة) الحادثة لأورسولا، وأنها كانت قد نسيت فعلاً أن تضع سكراً في الكأس. فقالت أورسولا، دون أن تصيبها الدهشة :

ـ إنهم جميعاً هكذا، يولدون مجانين.

وخفّت حدة الفوضى مع الأيام، وفعل الزمن فعله فخلط بينهما. فالذي خرج من اللعبة وهو يحمل اسم أورليانو الثاني صار كبير الهامة ضخم الجسم كأجداده، والذي بقي يحمل اسم خوزيه أركاديو الثاني صار نحيلاً ناتىء العظام كالعقيد. ولم يبق لهما سوى سمة واحدة تجمع

بينهما ورثاها عن العائلة، ألا وهي ظاهرة الوحدة. وربما كان ذلك هو الذي جعل أورسولا تظن أن خطأ قد وقع في اسميهما منذ طفولتهما فتبادلا اسميهما، لأنهما لا يتطابقان مع هيئتيهما وخلقيهما وطبعيهما وبنيتيهما.

وبرز الاختلاف الحاسم بينهما إبّان الحرب. فقد طلب خوزيه أركاديو الثاني من العقيد جيرينيلدو ماركيز أن يصطحبه ليشهد تنفيذ أحكام الإعدام. فلبّى طلبه رغم معارضة أورسولا بينما كان أوريليانو الثاني يرتجف لمجرد الحديث عن مشاهدة أحكام الإعدام، ولذلك فضل البقاء في البيت. وفي سن الثانية عشرة، سأل هذا الأخير أورسولا عما تحويه الغرفة المقفلة. فأجابته :

ـ فيها كتب ملكيادس، والأشياء الغريبة التي كتبها في أواخر سني عمره.

فزاده ذلك الجواب حباً للاستطلاع بدلاً من أن يهدئه. فألح على أورسولا أن تعطيه المفاتيح، واعداً بإصرار ألاّ يفسد شيئاً. ولم يدخل أحد مكتب ملكيادس منذ اليوم الذي خرجت فيه جثته منه. فأغلق بقفل سدّ الصدأ منافذه.

وعندما فتح أوريليانو الثاني نوافذ المكتب، دخلت إليه أشعة هادئة، وكأنها كانت تدخله كل يوم فتنير جنباته. فلم يكن في المكان أي أثر للغبار أو بيوت العناكب : على العكس من ذلك، كان كل شيء نظيفاً، وكأنه مكنوس ومنظف لتوّه، حتى بدا أنظف وأفضل مما كان عليه يوم الدفن. الحبر في قعر المحبرة لم يجف، ولمعان المعادن لم يتأكسد. والجمرات ما زالت تشعّ متقدة في الموقد الذي مكّن خوزيه أركاديو بوينديا من الحصول على الزئبق المتبخر. وكانت الكتب منضدة على الرفوف، وقد غلفت بورق مقوّى شاحب اللون شبيه بجلد الإنسان

المدبوغ، وكذلك المخطوطات التي لم تمس. وكان هواء المكان أنقى منه في سائر غرف الدار، على الرغم من أنه ظل مقفلاً على مدى أعوام طويلة. وكان كل ما في الغرفة نظيفاً وفي أحسن حال، حتى إن أورسولا، عندما دخلتها بعد بضعة أسابيع، تحمل مكنسة وسطل ماء كي تغسل أرضها، لم تجد ما تفعله فيها.

كان أوريليانو الثاني يستغرق في قراءة كتاب كان بلا غلاف ولا عنوان ظاهر. ولكن ذلك لم يمنعه من أن ينكب على محتواه بلذة عجيبة. وكان الكتاب يروي قصة تلك المرأة، التي كانت لا تأكل، إذا جلست إلى المائدة، إلا حبات أرز تلتقطها بالدبابيس، وقصة الصياد الذي استعار صابورة لشبكته من جار له. ولما قدم له سمكة بدلاً من ذلك، كان في بطن السمكة ماسة كبيرة، وقصة المصباح الذي يستجيب للرغبات ويلبيها، وقصة بساط الريح. وقد عجب الغلام، أوريليانو الثاني، فسأل أورسولا ما إذا كانت تلك الأمور صحيحة، فأجابته بأن الغجر، عندما كانوا يزورون ماكوندو منذ سنين بعيدة، كانوا يحملون معهم القناديل العجيبة وبساط الريح. وأضافت متنهدة :

ـ ولكنّ ما يحدث هو أن العالم صائر إلى الزوال رويداً رويداً، وأن تلك الأشياء لم تعد تصل إلى هنا.

وعندما أنهى أوريليانو الثاني قراءة الكتاب، وقد فقدت منه بعض القصص، بفقدان بعض صفحاته، بدأ بدراسة المخطوطات. واستحال عليه فهمها لأن حروفها كانت تبدو له كثياب منشورة على حبل غسيل. وكانت أقرب إلى كتابة الأنغام الموسيقية منها إلى خط الكتابة المعروفة. وبينما كان ذات يوم، شديد الحرارة ولا سيما عند الظهيرة، يبذل كل جهده للنفاذ إلى سر المخطوطات، أحس فجأة أنه لم يكن في الغرفة وحيداً. فقد كان ملكيادس جالساً، ويداه على ركبتيه، مقابل الضوء

القادم من النافذة. كان لا يبلغ الأربعين من عمره، ويرتدي صدريته الغريبة الشكل نفسها، وقبعته الشبيهة بجناحي غراب، يتلامع على صدغيه الأشيبين الشحم الذائب بفعل الحرارة، تماماً كما سبق أن رآه أوريليانو وخوزيه أركاديو في طفولتهما.

وسرعان ما عرفه أوريليانو الثاني، لأن تلك الذكرى الوراثية كانت تنتقل من جيل إلى جيل، وقد وصلت إليه عبر ذاكرة جده.

حياه أوريليانو الثاني :

ـ سلاماً.

فأجاب ملكيادس :

ـ سلاماً، أيها الفتى.

ومنذئذ، وعلى مدى بضع سنين، كانا يلتقيان كل عصر تقريباً. فحدثه ملكيادس عن العالم، وحاول أن يزرع فيه حكمته القديمة، ولكنه رفض أن يترجم له المخطوطات. وذكر له السبب قائلاً :

ـ ينبغي ألا يعرف أحد معناها قبل أن يبلغ سنه مئة عام.

وكتم أوريليانو الثاني أمر هذه اللقاءات، وحافظ على سريتها. ولكنه شعر، ذات يوم، بانهيار ذلك العالم الذي لا يعرفه سواه، عندما دخلت عليه أورسولا الغرفة، في اللحظة التي كان فيها ملكيادس. ولكنها لم تره. فسألته :

ـ مع من كنت تتكلم؟.

فأجاب أوريليانو الثاني :

ـ لا أحد.

فقالت أورسولا :

ـ ذلك ما كان يفعله جد أبيك. فقد كان مثلك يحادث نفسه أيضاً.

خلال ذلك الوقت نفسه، كان خوزيه أركاديو الثاني قد أشبع رغبته في حضور تنفيذ أحكام الإعدام. ولسوف يتذكر طوال عمره لمعات تلك الطلقات الست، التي دوّت في آن واحد، وصداها المتردد بين التلال، وتلك الابتسامة الباهتة الحزينة لأحد المحكومين بالإعدام، وعينيه التائهتين، وقد ظل منتصباً فيما أخذ يتبلل بالدم، ذلك الذي ظل مبتسماً حتى بعد أن فكوا وثاقه المربوط إلى العمود ووضعوه في صندوق مليء بالكلس. حتى قال خوزيه أركاديو الثاني في نفسه :

ـ ما يزال حياً. سوف يدفنونه وهو حيّ.

وقد أثّر المشهد في نفسه، حتى كره الحرب وكلّ ما هو عسكري، لا بسبب الإعدامات وحسب، وإنما بسبب تلك العادة المخيفة من دفن المعدمين وهم أحياء. ولم يذكر أحد، فيما بعد، متى بدأ على وجه التحقيق يقرع أجراس برج الكنيسة، ويساعد الأب أنطونيو إيزابيل، خليفة الكاهن السابق في أداء الصلاة، ولا متى بدأ يربي ديكة القتال في باحة الأبرشية.

ولما علم العقيد جيرينيلدو ماركيز بأمره، وبخه بقسوة، وأخذ عليه أن يتعلم المهن التي يشجبها الأحرار. وعندها أجاب قائلاً :

ـ الحقيقة أنني أظن أنني قد تحولت إلى محافظ. وكان يبدو عليه كأنما يؤمن بأن ذلك قدر محتوم. فأثار جوابه العقيد جيرينيلدو ماركيز، فأخبر أورسولا بأمره. فأيدت موقفه قائلة :

ـ ذلك أمر حسن، فلعله يصبح كاهناً، ليدخل الله هذا البيت أخيراً.

وسرعان ما انكشف أن الأب أنطونيو إيزابيل كان يعده لتناول القربان الأول. كان يعلمه تعاليم الدين، وهو يحلق الريش عن رقاب الديكة استعداداً للقتال. وكان يشرح له، بالأمثلة البسيطة، وهو يضع الدجاجات الحاضنات في أعشاشها، كيف فكّر الله، في اليوم الثاني من

الخليقة، أن الفراخ يمكن أن تتكون داخل البيضة.

وبعد تلك الفترة، بدأت تظهر على الخوري أعراض الشيخوخة، مما دفعه للقول، بعد بضع سنوات، أن الشيطان ربما يكون قد خرج منتصراً في ثورته ضد الرب، وأنه ربما يكون هو الذي يجلس على العرش السماوي، دون أن يكشف عن هويته الحقيقية، كي يخدع الأبرياء. واندفع خوزيه أركاديو الثاني وراء حماسة تعلمه، فتوصل، بعد بضعة أشهر، إلى أن يكون في مثل خبرته في التعاويذ اللاهوتية التي تبلبل الشيطان، بل وأحذق منه وأمهر في المكامن والمصائد التي كانت تنصب في حظائر قتال الديكة.

وخاطت له أمارانتا بزة كتّان ذات قبة عالية وربطة عنق، واشترت له حذاء أبيض، ونقشت له اسمه بحروف مذهبة على الشريطة المعلقة بشمعته. وقبل يومين من موعد القربان الأول، اصطحبه الأب أنطونيو إيزابيل إلى غرفته، حيث أغلق الباب عليهما، ليأخذ اعترافه، ومعه ناموس الخطايا.

وكانت قائمة الخطايا طويلة جداً، حتى نام الخوري العجوز في مقعده قبل أن يبلغ نهايتها، لأنه كان معتاداً على النوم في الساعة السادسة. وكان الاستجواب تجلياً حقيقياً عند خوزيه أركاديو الثاني. ولم يعجب حين سأله الأب إن كان قد ارتكب أفعالاً قبيحة مع النساء. فأجاب صادقاً بالنفي. ولكنه شعر باختلال توازنه عندما سأله ما إذا كان قد ارتكب مثل تلك الأفعال مع الحيوانات. وكان تناوله القربان في أول يوم جمعة من شهر أيار (مايو)، مدفوعاً بحب الاستطلاع الذي كان يؤرقه. وقد ألقى السؤال، فيما بعد على بيترونيو القندلفت (خادم الكنيسة) المريض، الذي كان يعيش في البرج، ويروى أنه كان يتغذى بالخفافيش. فأجابه بيترونيو:

ـ هناك مسيحيون فاسدون خطاة، يفعلون مثل هذه الأمور بالحمير.

وألحّ خوزيه أركاديو الثاني في حبه للاستطلاع، فراح يسأل أسئلة كثيرة جداً، حتى عيل صبر بيترونيو، فاعترف له قائلاً:

ـ أنا أذهب لهذا الشأن كل ليلة ثلاثاء. فإذا وعدتني ألا تبوح لأحد فسآخذك معي الثلاثاء القادم.

ولم يخلف بيترونيو وعده ليلة الثلاثاء التالي، فنزل من البرج، وهو يحمل مقعداً صغيراً، ما كان أحد ليعلم لماذا يستعمله. واصطحب خوزيه أركاديو الثاني إلى حرج قريب في تلك الناحية. وسرّ الفتى بتلك الغزوات الليلية، حتى لم يشاهد، إلا بعد فترة طويلة، في مخزن كاتارينو. وأصبح من رجال مصارعة الديكة. وقد خاطبته أورسولا، عندما شاهدته أول مرة يدخل الدار ومعه تلك الطيور الجميلة المقاتلة، قائلة بحزم:

ـ لقد جلبت الديكة على هذه الدار من المرارة والبؤس ما يكفيها ويزيد، حتى تأتيها منها بالمزيد. فخذ هذه المخلوقات إلى مكان آخر، فلا أريد أن أراها هنا.

فأبعد خوزيه أركاديو الثاني الطيور عن الدار دون مناقشة، ولكنه تابع تغذيتها والاعتناء بها وتفريخها في بيت جدته بيلار تيريزا. فقد وضعت هذه تحت تصرفه كل ما كان يريده لعلها تراه في بيتها. وقد وضع، فيما بعد، موضع التنفيذ، كل المعرفة التي أخذها عن الأب أنطونيو إيزابيل. فربح من المال ما يكفي لتطوير تربيتها، وللحصول على ملذات الرجال الحقيقية.

في تلك الفترة، لم تكن أورسولا لتعرف، عندما تقارنه بأخيه، كيف افترق، إلى هذه الدرجة، التوأمان اللذان كانا يبدوان كأنهما كائن واحد في طفولتهما. ولكن استغرابها بدأ يتلاشى عندما لاحظت، بعد قليل،

كيف أخذ أوريليانو الثاني يتحول فجأة إلى الكسل والملذات. فقد بقي، طوال انحباسه في مكتب ملكيادس، منطوياً على نفسه كما كان العقيد أوريليانو بويندا في شبابه. ولكنه في الفترة التي سبقت معاهدة نيرلانديا، أخرجته المصادفة البحتة من انطوائه واستغراقه، ودفعته إلى مواجهة الواقع في الحياة.

فقد دخلت عليه، يوماً، صبية تبيع أوراق اليانصيب، التي يربح فيها صاحب النصيب آلة الأوكورديون الموسيقية. حيته بمودة ظاهرة، دون أن يستغرب. فكثيراً ما كان الناس يظنونه أخاه خوزيه أركاديو الثاني. ولم يحاول هو أن يرفع اللبس، أو يصحح خطأها، حتى عندما حاولت أن تستدر عطفه بدموعها. وانتهى الموقف بأن صحبته إلى غرفتها. وقد أحبته بعد لقائهما الأول حباً دفعها للغش، عند سحب اليانصيب، فربح الأكورديون. ثم اكتشف أوريليانو الثاني، بعد أسبوعين، أن تلك الفتاة كانت تعاشره وتعاشر أخاه على التوالي، ظناً منها أنهما واحد. وبدلاً من أن يعمد إلى إيضاح الأمر، عمل على ترتيب الوضع بحيث يستمر. ولم يعد بعدها إلى مكتب ملكيادس. فكان يقضي فترات ما بعد الظهر، في فناء الدار، يتدرب على العزف على الأوكورديون اعتماداً على السمع، على الرغم من اعتراضات أورسولا، التي كانت قد منعت الموسيقى في الدار، نظراً للحداد المتتالي، ولأنها كانت تحتقر الأكورديون. فهو عندها آلة لا تصلح إلا للأفاقين المنبوذين، من ورثة فرانسيسكو الإنسان. ولكن أوريليانو الثاني أفلح في أن يكون عازف أوكورديون ماهراً. وقد تابع العزف عليه حتى بعد أن تزوج وأنجب أطفالاً، حتى صار واحداً من أكثر الناس احتراماً في ماكوندو.

ظل خلال ما يقرب من شهرين يقاسم أخاه تلك المرأة. بل كان يتلصص عليه ويراقبه ويفسد له خططه. حتى إذا أيقن أن خوزيه أركاديو

الثاني لن يذهب، في ليلة ما، إلى عشيقتهما المشتركة، ذهب هو إليها ليعاشرها. وقد أحس في صباح أحد الأيام أنه مريض. وبعد يومين، من ذلك، وجد أخاه في الحمام. وقد تعلق بعارضة خشبية، ينضح عرقاً ويبكي بدموع ساخنة. وعندها أدرك الأمر. واعترف له أخوه بأن تلك المرأة قد طردته لأنه نقل إليها مرضاً من الأمراض التي يدعونها بأمراض الخنا. وأخبره بأن بيلار تيرنيرا كانت تحاول علاجه. فأخضع أوريليانو الثاني نفسه، سراً، لغسولات البيرمانغنات الحارقة، والسوائل المدرة للبول. ثم شفي كل منهما، وحده، بعد أشهر ثلاثة قضياها في آلام متواصلة مكتومة. ولم ير خوزيه أركاديو الثاني تلك المرأة من بعد قط، بينما حصل أوريليانو الثاني على مغفرتها، وبقي معها حتى مماته.

كان اسمها بيترا كوتيس. وقد جاءت إلى ماكوندو إبان الحرب، مع زوج، جمعتها به المصادفة، كان يعيش على بيع أوراق اليانصيب. فلما مات تابعت هي العمل ذاته. كانت شابة خلاسية نظيفة، ذات عينين صفراوين لوزيتي الشكل، تمنحان وجهها شراسة فهد. ولكنها كانت ذات قلب كريم، وكانت فاتنة رائعة في حياة الحب.

وقد جن جنون أورسولا، عندما علمت أن خوزيه أركاديو الثاني كان يربي ديكة القتال، وأن أوريليانو الثاني كان يعزف على الأكورديون في حفلاته الصاخبة، وأنه يبادل، دون تحفظ، محظيته المسرات. وكأنهما قد جمعا فيهما كل رذائل العائلة، دون أن يأخذا أية فضيلة من فضائلها. وعندها اتخذت قرارها بألا يحمل أحد، بعد اليوم، اسم خوزيه أركاديو أو اسم أوريليانو. ومع ذلك لم تجرؤ على معارضة أوريليانو الثاني في إرادته. فقالت له:

- حسناً، ولكن بشرط واحد. وهو أن أربيه بنفسي.

وقد حافظت أورسولا على نشاطها الجسمي وحيويتها، ونزاهة

خلقها، وتوازنها العقلي، مع أنها كانت تشارف على المئة من عمرها، وتكاد تفقد بصرها نتيجة للسادات العينية (أي الماء الأزرق). ولم يكن هناك من هو أفضل منها لتربية إنسان فاضل يحرص على سمعة العائلة، إنسان لم يسمع قط بشؤون الحرب أو ديكة القتال والبغايا والمغامرات الطائشة، تلك الدواهي الأربع التي ـ حسب رأي أورسولا ـ قد جرّت سلالتهم إلى الدمار. ولذلك عاهدت نفسها، بكل وقار، قائلة :

ـ سوف يصبح هذا خورياً، وإذا مدّ الله في عمري، فإنه سوف يكون البابا.

وانفجر جميع من سمعها ضاحكاً، لا في الغرفة وحدها، بل في الدار كلها، حيث اجتمعت عصبة أورليانو الثاني الطائشة. ونسي الناس الحرب في مستودع الذكريات، غير أن طيفها قد عاد شبحاً لدى ازدياد القعقعة الناجمة عن رفع سدادات زجاجات الشمبانيا.

قال أورليانو الثاني، وهو يرفع كأسه :

ـ في صحة البابا.

وشرب المدعوون النخب جميعاً، وعزف صاحب الدار على الأكورديون. وانطلقت الأسهم النارية إيذاناً بالفرح، ودوّى قرع الطبول في أرجاء البلدة. ولما انبلج الفجر، وارتوى الضيوف بالشمبانيا، نحروا ست بقرات، تركوها في الشوارع للناس. ولم يفاجأ أحد بكل هذا، ولم يعتبره أحد عاراً. فقد صار مثل هذه الحفلات شيئاً عادياً منذ تسلم أورليانو الثاني إدارة البيت. وقد كان سبب هذه الحفلة واضحاً، إذ ليس هناك أهم من ولادة البابا.

واستطاع أورليانو الثاني، خلال سنوات قليلة، ودون جهد يذكر، إلاّ ما أسعفه به الحظ ،أن يجمع ثروة من أهم الثروات في إقليم الماريو (إقليم المستنقعات) بفضل تكاثر حيواناته غير الطبيعي. فكانت خيله تلد ثلاثة

توائم، ويبيض دجاجه مرتين في اليوم، وتسمن خنازيره حتى درجة جنونية. ولم يتمكن أحد من تفسير تلك الظاهرة من ضراوة الأنسال، إلا إذا كان يستخدم طرائق سحرية. وكانت أورسولا تقول لابن حفيدها الأرعن :

ـ لن يدوم لك هذا الحظ إلى الأبد. فاستفد منه واقتصد شيئاً الآن.

ولكن أورليانو الثاني ما كان ليهتم بما تقول. فهو ما ينفك يفتح زجاجات الشمبانيا لكي يسكر أصدقاؤه، وما تنفك بهائمه تزداد جنوناً في الولادة. ويزداد هو اعتقاداً بأن سطوع نجمه لا يمت إلى تصرفاته بصلة، بل هو ناشىء من عشيقته بيترا كوتيس التي كان لحبها فضيلة تغيير نظام الطبيعة. وتوطدت قناعته بمصدر ثروته، حتى جعل بيترا كوتيس قريبة دائماً من حيواناته. وقد ظل يعيش معها حتى بعد زواجه وإنجاب أطفاله، بموافقة زوجته فيرناندا.

كان أورليانو الثاني قويّ البنية، عملاقاً كأجداده، مفعماً بالحيوية. بل كان يفوق أجداده، بما لم يكن لديهم، بسحره الذي لا يقاوم. ولم يكن لديه ما يكفيه من الوقت للعناية بقطعانه. وقد كان يكفي أن يقترب من البهائم، ومعه بيترا كوتيس، فيمر، وهو على صهوة جواده، بالأرض التي تتكاثر فيها حيواناته، حتى يصاب كل حيوان منها بطاعون التكاثر الهائل والذي لا شفاء منه.

وقد حصل على تلك الثروة بمحض المصادفة، تماماً كما ظلت المصادفات هي الأصل في كل ما جرى له من أمور طيبة في حياته الطويلة.

فقد بقيت بيترا كوتيس تعيش من دخل اليانصيب حتى نهاية الحروب، وكان أورليانو الثاني قادراً، من وقت لآخر، على سرقة مدخرات أورسولا. وكان وإياها يشكلان زوجاً خفيف الظل. فلا همّ

لهما إلاّ أن يناما معاً حتى في الأيام الممنوعة، وأن يثرثرا معاً في السرير حتى الصباح. وكانت أورسولا تصرخ في وجه ابن حفيدها، عندما تراه راجعاً في الصباح كمن يمشي في نومه :

ـ تلك المرأة سبب ضياعك ودمارك. فلقد سحرتك، وليس بعيداً أن أراك يوماً تتلوى من مرض القولنج، وقد استقرّ ضفدع طيني في بطنك.

وقد مرّ وقت طويل حتى اكتشف خوزيه أركاديو الثاني أنه قد عزل، وأن أخاه قد حلّ محله. ولم يدرك معنى عاطفة أخيه وعشقه. فكان يذكر عن بيترا كوتيس أنها امرأة عادية، وأنها كسولة في الفراش، وغير موهوبة في تعاطي الحب. وأصم أورليانو الثاني أذنيه عن صراخ أورسولا، وسخرية أخية، وراح يفكر في احتراف مهنة تمكنه من إيجاد بيت لبيترا كوتيس، لكي يموت معها : فوقها وتحتها، في ليلة حب محمومة لا تعرف حدوداً.

وعندما عاد العقيد أورليانو بوينديا ففتح مشغله من جديد، وانكفأ على عمله مشدوداً بلذائذ الشيخوخة الهادئة المطمئنة، ظن أورليانو الثاني أن ذلك قد يكون حرفة رابحة. فماذا لو كرّس وقته لصياغة الأسماك الذهبية. وراح يمضي الساعات الطوال، في تلك الغرفة الصغيرة الحارة، وهو يشاهد كيف تتحول صحائف المعادن القاسية، بفعل الجهد والصبر من ذلك الرجل العقيد الذي ضيع أوهامه، إلى حراشف ذهبية. وبدت له المهنة شاقة، وألحت عليه ذكرى بيترا كوتيس، وشدته. فترك المشغل بعد ثلاثة أسابيع. وفي تلك الفترة، خطرت لبيترا كوتيس فكرة الأرانب، بعد تربيتها وإكثارها. فتكاثرت الأرانب، وكبرت بسرعة لم تكد تترك لها من الوقت ما يكفي لبيع تذاكر اليانصيب. ولم يلحظ أورليانو الثاني، في البدء، التسارع المذهل في تكاثرها. ولكنه، ذات ليلة، وقد سئم أهل البلدة كل ما يتصل بيانصيب الأرانب، شعر بحركة

غريبة وراء جدار الدار. فقالت له بيترا كوتيس :

ـ لا تقلق. فهي الأرانب.

ولم يستطيعا النوم طوال تلك الليلة، بسبب الضجة الهائلة الصادرة عن تلك الحيوانات، وحركتها الدائبة. ولما فتح أورليانو الثاني الباب عند الفجر، رأى في ضوء الصباح الوليد أرض الدار وقد غطتها أمواج الأرانب الزرق. وانفجرت بيترا كوتيس ضاحكة، ولم تستطع مقاومة النكتة المغيظة، فقالت له :

ـ هذه مواليد الليلة الماضية وحدها.

فصاح بهلع :

ـ يا إلهي، فلم لا تجربين ذلك على البقر؟ !.

وبعد بضعة أيام، وفي محاولة منها لتنظيف باحة الدار، استعاضت بيترا كوتيس عن الأرانب ببقرة. فولدت البقرة، بعد شهرين، ثلاثة توائم. وهكذا بدأت الأمور. وبين عشية وضحاها، صار أورليانو الثاني مالكاً لأراض وقطعان لا يتسع له الوقت معها لتوسيع اسطبلاته وحظائر خنازيره. كان ذلك نوعاً من الخصب الذي يسبب الدوار، ويبعث على القهقهة بجنون. فلم يكن أورليانو الثاني يستطيع مقاومة التصرف اللاهي تعبيراً عن فرحه ومرحه. فتراه يصيح أحياناً :

ـ كفى أيها البقر، فالحياة قصيرة.

وكانت أورسولا تتساءل، فيما بينها وبين نفسها، فيما إذا كان الرجل قد وقع في ورطة ما، أو فيما إذا كان يسرق أو صار لص حيوانات، وكانت كلما شاهدته يفتح زجاجة شمبانيا، كي يستمتع بصب رغوتها على رأسه، تصيح به معنفة إياه لإسرافه. وقد ألحت في إزعاجه، حتى إن أورليانو الثاني، وقد استفاق ذات يوم وهو يفيض فرحاً وحبوراً،

www.liilas.com/vb3

فجاء وهو يحمل صندوقاً مليئاً بأوراق المال، وعلبة صمغ وفرشاة. ثم انطلق يغني بأعلى صوته أغاني فرانسيسكو الرجل القديمة، بينما كان يزخرف الجدران، من الداخل إلى الخارج، ومن أعلى إلى أسفل، بأوراق عملة قيمة كل منها بيزو واحد. فصار البيت القديم، الذي طلوه باللون الأبيض، منذ الفترة التي جلبوا فيها البيانو الآلي، ذا مظهر غريب، وفي خضم الضجة العائلية الكبيرة، ووسط صراخ أورسولا المتصاعد، وقد ضاقت ذرعاً بما رأت وسمعت، وفي غمرة أفراح أهل البلدة الذين غصت بهم الشوارع، وقد احتشدوا ليشهدوا ذروة المجد والإسراف، انتهى أوريليانو الثاني من عمله ذاك. بأن زيّن المكان الممتد من الشرفة حتى المطبخ، مروراً بالحمامات وغرف النوم. ثم ألقى ما تبقى من أوراق العملة في فناء الدار، هاتفاً :

ـ والآن. أرجو ألاّ يحدثني أحد في هذا البيت عن المال بعد اليوم.

وهكذا كان. فقد انتزعت أورسولا الأوراق المالية التي غطت الجدران، وأعادت طلاء البيت باللون الأبيض. ثم دعت الله قائلة :

ـ يا إلهي، أعدنا فقراء، كما كنّا يوم أسسنا هذه البلدة، كي لا تحاسبنا في الحياة الآخرة على كل ما بذّرناه.

ولكن الاستجابة لدعائها كانت معكوسة، فقد اصطدم، مصادفة، واحد من العمال الذين كانوا ينزعون الأوراق المالية عن الجدران، بتمثال ضخم من الجبس للقديس خوزيه، جاء به بعضهم، في آخر سني الحرب، إلى الدار. فتحطم التمثال الأجوف على الأرض، فكان محشواً بالقطع الذهبية. وما كان أحد ليذكر من جاء بهذا القديس بالحجم الطبيعي. قالت أمارانتا :

ـ جاء به ثلاثة رجال إلى هنا. وسألوني أن نحتفظ لهم به حتى يتوقف المطر. فطلبت منهم أن يضعوه هنا في الزاوية، فبقي حيث هو

منذ ذلك الحين، لأن الرجال لم يرجعوا قط كي يأخذوه.

في الأيام الأخيرة، كانت أورسولا توقد عليه الشموع، وتركع أمامه، وما كان ليخطر لها، ما دام ذلك قديساً، أنها كانت تعبد ما يناهز أربع مئة ليرة ذهباً. وزاد في حزنها ذلك الدليل غير المقصود على وثنيتها. ولم تشأ أن تمس تلك الكومة الهائلة من القطع الذهبية، فعبّأتها في أكياس ثلاثة من القنّب، ودفنتها في مكان سري، في انتظار عودة الثلاثة المجهولين كي يستعيدوها. وكانت أورسولا بعد زمن طويل من هذا، في أواخر شيخوختها، تشارك أحياناً في أحاديث المسافرين، وتحدث من يمرون بالبيت، تسألهم إن كان سبق لهم أن مروا زمن الحرب، من هنا، وتركوا عندهم، أمانة، تمثالاً للقديس خوزيه مصنوعاً من الجبس، ريثما ينقضي فصل الشتاء.

كانت الأمور التي تشدّ انتباه أورسولا، بل وتدهشها، في تلك الحقبة، أموراً عادية. وكانت ماكوندو تغرق في تقدّم هائل. فقد حلّ محلّ بيوت الطين والقصب، التي بناها الروّاد الأوائل، أبنية من حجارة الطوب والقرميد، أبوابها ونوافذها من خشب، وأرضها من الإسمنت، مما جعل ساعتي ما بعد الظهر، الخانقتين بحرارتهما، محتملتين. ولم يبق من قرية خوزيه أركاديو بوينديا القديمة سوى أشجار اللور المغبرّة، التي قاومت كل عوامل الطبيعة وتقلباتها المأساوية، والنهر، بمياهه الشفافة المتدفقة فوق حجارته ما قبل التاريخية، والتي أخذت تطحنها ضربات خوزيه أركاديو الثاني المجنونة. فقد عزم على تنظيف مجرى النهر، ليقيم فيه ملاحة نهرية. وكان ذلك حلماً أخرق شبيهاً بأحلام جده الأول (جدّ أبيه)، لأن المجرى الصخري كان كثير المنحدرات، سريع التدفق، مما يحول دون إنشاء ملاحة بين ماكوندو والبحر. ولكن خوزيه أركاديو الثاني كان يتشبث بمشروعه في سورة غروره غير المفهوم. وكان، حتى

ذلك الوقت، لا يبدو منه ما يدل على سعة خياله. ولم يعرف عنه أنه عاشر امرأة غير عشرته العابرة لبيترا كوتيس. وكانت أورسولا تعتبره أضأل نموذج في تاريخ العائلة كله. فلم يكن قادراً على أن يبرز في شيء، حتى صراع الديكة. حتى حدثه العقيد أورليانو بوينديا، ذات يوم، عن المركب الإسباني الغارق على بعد ثمانية أميال من البحر، وروى له أنه رأى بعينيه إطاره المتكلّس خلال الحرب. تلك القصة التي لم يصدقها الكثيرون طوال سنين. ولكن خوزيه أركاديو الثاني وجد فيها نوعاً من الكشف، فباع ديكته لأفضل من دفع له، واستأجر رجالاً، واشترى أدوات، واندفع بعناد في مغامرته الكبرى. فعمد إلى كسر الصخور، وحفر الأقنية، وتعزيل الحجارة. وتسوية الشلالات. وكانت أورسولا تردد قائلة:

ـ أعرف كل هذا عن ظهر قلب. فكأن الزمان يعيد نفسه، وكأننا عدنا من حيث بدأنا.

ولمّا ظنّ أركاديو الثاني أن النهر بات صالحاً للملاحة، حدّث أخاه أورليانو الثاني عن خططه تفصيلاً، فأعطاه أخوه المال اللازم للمشروع.

وتوارى خوزيه أركاديو الثاني طويلاً عن الأنظار، فبدأ بعض الناس يروون أن زعمه شراء مركب لم يكن سوى حيلة للفرار بمال أخيه. ولكن الناس ما لبثوا أن تناقلوا خبر سفينة عجيبة تقترب من البلدة. وتسارع أهل ماكوندو إلى ضفة النهر، وكانوا قد نسوا مغامرات خوزيه أركاديو بوينديا الرهيبة. فرأوا، وهم شبه مسحورين دهشة، أول مركب، وآخر مركب، يرسو في البلدة. والواقع أنه لم يكن سوى طوّافة من جذوع الأشجار، يجرها نحو عشرين رجلاً بحبال غليظة، وهم يحاذونها متقدمين عليها، على ضفتي النهر. وكان خوزيه أركاديو الثاني يجلس في مقدمة المركب، يوجه العملية المغامرة الصعبة، ويبرق الرضا في

عينيه. وقد جاء معه، على القارب، جمع كبير من السيدات الفاخرات، يحتمين من الشمس الحارقة بمظلات فاقعة الألوان، ويغطين أكتافهن بشالات من حرير، وقد دهنّ وجوههن بأصبغة كثيفة، وزيّن شعورهن بأزهار طبيعية، وأحطن أذرعتهن بحيّات ذهبية، ورصّعن أسنانهن بأحجار ماسية.

كانت تلك الطوّافة المركب الوحيد الذي استطاع خوزيه أركاديو الثاني أن يوصله إلى ماكوندو، ولسفرة واحدة، ولو أنه لم يعترف قط أن عمله لم يكن إلاّ إذعانا لإرادته وحسب. وقد قدّم لأخيه تقريراً تفصيلياً ووصفاً خارقاً عما تمّ له، ثم لم يلبث أن عاد إلى هوايته في صراع الديكة من جديد. ولم يبق من تلك المغامرة الفاشلة من شيء سوى روح الابتكار ونفس التجديد، مما جلبته السيدات القادمات من فرنسا، فبدّلن بكفاءتهن ومهارتهن الممتازة تقاليد الحب، وجلبن الخراب بحسن عشرتهن إلى مخزن كاتارينو، وحوّلن الشارع إلى سوق ذي قناديل يابانية وأرغنات هنغارية رقيقة. وقد كنّ هن اللواتي نظمن ذلك المهرجان الدامي الذي أغرق ماكوندو في السكر طوال ثلاثة أيام، ولم ينتج أي شيء له صفة الدوام، اللهم إلاّ أنه كان المناسبة التي تعرّف فيها أورليانو الثاني إلى فيرناندا ديل كاربيو.

توّجت ريميديوس الجميلة ملكة جمال. ولم تقو أورسولا على الحؤول دون اختيارها، ولو أن جمال ابنة حفيدها الهادىء كان يجعلها ترتجف خوفاً. وقد نجحت، حتى الآن، في منعها من الخروج إلى الشارع وحيدة. ولم تكن تخرج إلاّ للذهاب للصلاة بصحبة أمارانتا. وكانت تفرض عليها أن تغطي وجهها بخمار أسود. فكان الطائشون الفاسقون من الشباب، ممن كانوا يتنكرون بثياب رجال الدين ويرددون في مخزن كاتارينو أدعية صلواتهم الفاجرة، يقصدون الكنيسة، ولا همّ لهم إلاّ أن

يسترقوا النظر، ولو للحظة واحدة، إلى وجه ريميديوس الجميلة. وقد تناقل الناس الحديث عن جمالها الأسطوري، بحرارة ودهشة وابتهال في طول إقليم الماريو (منطقة المستنقعات) وعرضه. ومضى زمن طويل قبل أن يتمكنوا من رؤيتها. وكان الأفضل لهم لو أن الفرصة ما واتتهم قط، لأن أكثرهم لم يجدوا، من بعد، إلى النوم الهادىء سبيلاً. أما الرجل الذي توصل إلى ذلك، وكان أجنبياً، فقد فقد إلى الأبد صفاء ذهنه، وضلّ في متاهات الضياع والبؤس، إلى أن مزّقه، بعد ذلك، قطار ليليّ داسه بينما هو نائم على سكة الحديد.

وقد كان، يوم رآه الناس في الكنيسة أول مرة، يرتدي بزة من المخمل لها حواش خضراء، وصدّاراً موشّحاً، فأدركوا أنه قادم من بلاد نائية، وربما من مدينة خارج بلادهم، وقد جذبه السحر الخلاب في ريميديوس الجميلة. وكان فتى جميلاً تبدو عليه الجرأة والوقار. يعرف كيف يتباهى بهيئته الجميلة، حتى لكأن بيترو كريسبي، إذا قورن به، لم يكن غير طفل ما بلغ النضج بعد. فتهامست النسوة، بابتساماتهن الحاقدة، أنه الرجل الذي يستأهل صاحبة الخمار.

ولم يصاحب أحداً من ماكوندو، ولم يكن يظهر إلاّ يوم الأحد، مع إطلالة الصباح، وكأنه أمير خرافيّ، يعلو صهوة جواد ركابه من فضة، وسرجه من مخمل. ثم يغادر البلدة حالما تنتهي الصلاة. كان لحضوره سلطة أدرك الناس معها، منذ أن شاهدوه أول مرة في الكنيسة، أنّ مبارزة قاسية صامتة قد بدأت بينه وبين ريميديوس الجميلة، وأن ما انعقد بينهما هو عبارة عن اتفاق خفي، مضمونه التحدي الذي لا حيلة لأحد فيه، والذي لا يمكن أن ينتهي إلى الحب وحسب، بل ربما كان الموت نهايته المحتومة.

وظهر السيد الفارس في الأحد السادس، منذ وصوله، وهو يمسك

بيده وردة صفراء. واستمع للصلاة واقفاً كعادته. ولما انتهت الصلاة. تقدم نحو طريق ريميديوس الجميلة، فاعترضها وقدم لها وردته الوحيدة. فتناولتها منه بحركة طبيعية، وكأنما كانت قد أعدّت نفسها لهذا التكريم. وعند ذلك، وحسب، كشفت عن وجهها لحظة، وشكرته بابتسامة. ثم لم تفعل غير ذلك قط. ولم تكن تلك اللحظة للسيد الفارس وحده، بل لكل الرجال الذين شاء لهم سوء حظهم أن يروها، لحظة سرمدية خالدة.

منذ ذلك اليوم بدأ ذلك السيد الفارس يأتي بالموسيقيين إلى جوار نافذة ريميديوس الجميلة، حيث يعزفون ألحانهم، ويستمرون في ذلك أحياناً حتى الفجر. ولم يرق له غير قلب أوريليانو الثاني، الذي أشفق عليه وحاول أن يثنيه عن دأبه. وقال في ذات مساء :

ـ لا تضع وقتك أكثر مما فعلت. فنساء هذا البيت أسوأ من البغال.

ثم عرض عليه صداقته، ودعاه للاغتسال معه بالشمبانيا، وحاول أن يقنعه أن الإناث في أسرته أحشاؤهن من حجر. ولكنه لم يتمكن من أن يثنيه عن عناده. وأثارت تلك الليالي الموسيقية الطويلة حنق العقيد أوريليانو بوينديا، فهدّد بأن يشفيه من علته برصاص مسدسه. ولم يفد معه شيء، ولم يبعده عن قصده سوى اليأس الذي آل إليه. فاستحال، وهو الأنيق الكامل، إلى شخص في أسمال قذرة. وتردّد أنه كان قد تخلى عن السلطة والثروة في بلده البعيد، ولو أن أحداً لم يعرف شيئاً عن حقيقة أصله. ثم تحول إلى إنسان يتشاحن مع الآخرين ويشاجرهم في أماكن القمار، واستيقظ، ذات يوم، وقد تلطخ ببرازه. وكان أشد ما في مأساته حزناً أن ريميديوس الجميلة لم تعره اهتمامها قط، حتى عندما كان يحضر إلى الكنيسة في مظهر الأمير. وعندما قبلت الوردة الصفراء منه، فعلت ذلك دون تفكير بأي سوء. وما كان ذلك إلاّ لأنها أعجبت

بحركته فشاءت أن تلهو بها. ولم ترفع خمارها كي تريه وجهها، بل لترى وجهه جيداً.

والحق أنّ ريميديوس الجميلة لم تكن من هذا العالم. فقد ظلت أمها، سانتا صوفيا (القديسة)، تغسلها في الحمام حتى بعد أن بلغت مبلغ النساء، وكانت تلبسها ملابسها، مع أنها كانت تعرف كيف تلبس وحدها دون مساعدة. وكان أهلها يراقبونها ليحولوا دون أن ترسم حيوانات صغيرة على الجدران، بعصا مغموسة ببرازها. وقد بلغت العشرين من عمرها دون أن تتعلم القراءة والكتابة، أو تجيد استعمال الشوكة والسكين على المائدة. كانت، بطبعها، تقاوم كلّ التقاليد كائنة ما كانت. وعندما أعلن لها قائد الحرس عن وجده بها، صدّته بذكاء لأنّ خفته كانت تخيفها. فقالت لأمارانتا:

ـ أنظري ما أسذجه. فهو يدّعي أنه يموت بي، كأنني مرض القولنج العنيف.

حتى إذا وجدوه ميتاً فعلاً قرب نافذتها، لم تزد على أن تمسكت برأيها السابق، فقالت:

ـ ألا تلاحظون أنه كان بسيطاً؟!.

كانت تبدو ذات رؤيا نافذة، تمكنها بوضوح من إدراك حقائق الأشياء الكامنة وراء شكلياتها. كان ذلك، على الأقل، رأي العقيد أوريليانو بوينديا. فهو لم يكن قط ليرى في ريميديوس الجميلة متخلفة عقلياً، كما كان الآخرون يظنون. بل، على العكس تماماً، كان يقول عنها دائماً:

ـ كأنها عائدة من حرب دامت عشرين عاماً.

أما أورسولا فكانت تحمد الرب وتشكره، لأنه كافأ العائلة فمنحها إنساناً نادر النقاء. ولكنها كانت، في الوقت ذاته، تخشى جمالها الخارق، لأنها كانت عندها فضيلة متناقضة. فهي مصيدة شيطانية في

قلب البراءة. ومن أجل ذلك قررت أن تبعدها عن العالم، وأن تصونها من كل إغراء أرضيّ، وهي تجهل أن ريميديوس الجميلة كانت في مأمن من هذه العدوى مذ كانت في بطن أمها. ولم يخطر لها، ولم تتصور أنها يمكن أن تقبل، أن يتم انتخابها ملكة جمال، في المهرجان، لأن ذلك كان عندها من عمل الشيطان. ولكن أوريليانو الثاني؛ وقد أعجبته وسيطرت عليه الفكرة الغريبة بأن يتنكر على شكل نمر. فجاء بالأب أنطونيو إيزابيل إلى البيت، كي يقنع أورسولا بأن المهرجان (الكرنفال) ليس عيداً وثنياً، كما كانت تقول، بل هو تقليد كاثوليكي. وقد اقتنعت أخيراً، وإن على مضض، فوافقت على التتويج.

وشاع الخبر القائل بأن ريميديوس بوينديا سوف تكون ملكة المهرجان، وتجاوز، خلال ساعات قلائل، إقليم الماريو (منطقة المستنقعات) فبلغ أماكن نائية كان أهلها يجهلون إشعاع جمالها العظيم، وأيقظ حنق من كانوا يرون في اسم عائلتها رمزاً للثورة. ولم يكن للحنق والقلق أي أساس أو مبرر. فقد كان العقيد أوريليانو بوينديا أكبر الناس في تلك الحقبة، حتى غدا ضحية تقدم العمر وانقشاع الوهم. وقد بدأ شيئاً فشيئاً يفقد كل صلة له بواقع البلاد. فحبس نفسه في مشغله، ولم تبق له مع العالم الخارجي سوى العلاقات المتصلة بتجارة أسماكه الذهبية.

وكان بقي لديه جندي قديم من الحرس الذين كانوا يقيمون حول بيته، في أوائل أيام السلم، فيذهب لبيع تلك الأسماك لسكان إقليم الماريو، ويعود مثقلاً بقطع العملة والأخبار.

وقد عاد إليه مرة بخبر يفيد أن حكومة المحافظين تريد، بدعم من الأحرار، إصلاح التقويم، كي يصبح بإمكان رئيس الجمهورية أن يبقى في السلطة مئة عام، وأن الحكومة وقعت، أخيراً، اتفاقاً مع روما، وأن كاردينالاً حضر منها، يحمل على رأسه تاجاً مجللاً بالجواهر، ويجلس

على عرش من ذهب، وأنّ وزراء الأحرار حرصوا على أن يأخذوا صورة معه، وهم يجثون على ركبهم يقبلون خاتمه، وأن جماعة من قطاع الطرق الملثمين خطفت مغنية من فرقة إسبانية كانت تمر في العاصمة، وأنها في يوم الأحد، الذي تلا ذلك، كانت ترقص عارية في البيت الريفي لرئيس الجمهورية.

فقال له العقيد :

ـ لا تحدثني في السياسة. فكل ما يهمنا هو بيع الأسماك ولقد أغرقت أورسولا في الضحك عندما بلغتها شائعة تفيد بأنه لا يريد أن يعرف شيئاً عن أوضاع البلاد، لأنه كان يغتني من مشغله. وهي، بحسها العمليّ الخيف، لم تستطع أن تدرك عمل العقيد، الذي كان يبدل سمكاته الصغيرات بقطع العملة الذهبية. ثم يحول هذه القطع الذهبية إلى سمكات ذهبية صغيرة، وهكذا دواليك. فيزداد عمله وتعبه كلما باع أكثر، وكأنه كان يريد أن يملأ تلك الحلقة المفرغة المثيرة للأعصاب.

والواقع أنه لم يكن يهتم بالتجارة قدر اهتمامه بالعمل نفسه. فقد كان بحاجة إلى الدقة والتركيز الشديد لترصيع الحراشف، وغرز اليواقيت الحمراء الصغيرة في أماكن العيون، وتطريق الآذان، وجمع الزعانف فلا يبقى له وقت من الفراغ يملؤه بزوال أوهام الحرب. كانت دقة حرفته المفرطة تتطلب منه الانتباه الشديد والاستغراق التام، الأمر الذي جعله يشيخ، خلال مدة قصيرة، أكثر مما شاخ في كل سني الحرب.

وبينما كان عموده الفقري يتقوّس نتيجة لجلوسه الطويل، بدأ نظره يضعف ويشح بسبب عمله الدقيق. ولكن تركيزه الذي لا ينقطع أوصله إلى سلام الروح. وكانت آخر مرة استمع فيها إلى شيء عن الحرب، يوم جاءته جماعة من الحزبيين الروّاد تطلب منه الدعم، كي تتم المصادقة على التقاعد طوال الحياة، كما سبق أن وعدت الحكومة، وكما كان دائماً

يبدو على وشك الصدور، ولكن لم يحدث ذلك. وقد قال لهم :

ـ انسوا ذلك. وانظروا كيف أرفض أنا راتبي التقاعدي، لكي أجنب نفسي عذاب انتظاره حتى الموت.

كان العقيد جيرينيلدو ماركيز، في البداية، يأتي لزيارته في وقت الأصيل، فيجلسان معاً على عتبة باب الدار المواجه للشارع العام ويتذاكران أحداث الماضي. ولكنّ أمارانتا لم تستطع احتمال كل الذكريات التي كان يوقظها فيها ذلك الرجل المتعب، الذي أسرعت به صلعته إلى حافة الشيخوخة المبكرة، فعمدت إلى إزعاجه بلا سبب واضح، حتى انقطع عن الزيارة، إلاّ في المناسبات الخاصة. ثم آل به الأمر إلى أن توارى تماماً بعد أن أقعده الشلل.

ولم يستطع العقيد أوريليانو بوينديا، وهو الهادىء الصامت، المغلق الحس على نسمة الحياة الجديدة التي اضطرب بها البيت، أن يدرك، إلاّ بعد لأي، أن سرّ الشيخوخة السعيدة ليس إلاّ في عقد اتفاق شريف مع الوحدة. فكان يستيقظ في الساعة الخامسة صباحاً، بعد نوم خفيف، فيشرب في المطبخ فنجان القهوة المرة الدائم، ثم يحبس نفسه النهار بطوله في مشغله. وفي الساعة الرابعة، من بعد الظهر، كان يعبر الشرفة، وهو يجرّ وراءه مقعده. فلا يتنبه لنار شجيرات الورد، أو بهاء الوقت، ولا لوضع أمارانتا الصعب، التي كان لكآبتها صوت مرجل يغلي، يتبيّنه المرء واضحاً عند مغيب الشمس. ثم يجلس على عتبة الباب مقابل الطريق العام، حتى يجبره البعوض على الدخول. وفي بعض الأحيان، كان يتجرأ أحد الناس، فيسأله وهو يمر به :

ـ كيف حالك أيها العقيد؟.

فيجيب قائلاً :

ـ كما ترى، أنتظر أن يمرّ موكب جنازتي.

وهكذا، لم يكن القلق الذي سببه ظهور اسم عائلته على الناس، بمناسبة تتويج ريميديوس الجميلة ملكة جمال، يستند إلى أساس. ولكن الكثيرين كانوا يرون غير ذلك.

اندفعت البلدة إلى الساحة العامة، وقد تفجّر فرحها بصخب، دون أن يتصور الناس، ولو للحظة، الخطر الذي كان يحيق بها. وبلغ المهرجان (الكرنفال) ذروته، وحقق أوريليانو الثاني حلمه في أن يتنكر في زي نمر. وكان يسير بين الحشود المتدافعة، وقد بح صوته لشدة ما صاح، عندما ظهرت فجأة، على طريق الماريو، جماعة كبيرة من المتنكرين، تبدو بينهم امرأة حملوها على منصة مذهبة. كانت المرأة لا أجمل، بل لا يمكن لخيال الإنسان أن يتصور شبيهة لها. ورفع أهل ماكوندو أقنعتهم، للحظة، ليتأملوا جيداً تلك المخلوقة المدهشة المتوجه بالزمرد، والتي كانت ترتدي عباءة من فرو السمّور الأبيض، فلم تكن تبدو ملكة تبرجت بالشذور الذهبية الرقيقة والورق المنفوش، بل ملكة حقيقية ذات سلطة شرعية. وكان بين الجمهور من رجح عقله، فشك في أن يكون التحدي وراء تلك الظاهرة. ولكن أوريليانو الثاني قطع الشك باليقين، فأعلن أن القادمين ضيوف شرف عليهم. وبحكمة سليمان، أجلس ريميديوس الجميلة والملكة الدخيلة على العرش نفسه. وساهم الغرباء، الذين تخفوا بزي البدو، في إسكار الجمهور، حتى انتصاف الليل. وزادوا في ذلك بمهارتهم الفائقة في اللعب بفن الأسهم النارية، ورشاقتهم البهلوانية، ممّا ذكّر بالغجر وألعابهم. وفجأة، وقد بلغ الاحتفال أوجه، خرق واحد من الناس ذلك التوازن الدقيق، فصاح قائلاً :

ـ عاش حزب الأحرار. عاش العقيد أوريليانو بويندِيا.

وضاع بهاء الأسهم النارية في هدير البنادق، وخنقت أصوات الهلع أنغام الموسيقى، وكنس الرعب فرح المنتشين. وقد زعم الناس، حتى

سنوات طويلة من بعد، أن حرس الملكة الدخيلة كان مؤلفاً من كتيبة من جنود الجيش النظامي، أخفوا تحت ملابسهم الفخمة أسلحتهم الرسمية. وأصدرت الحكومة بياناً تعلن فيه دحض هذا الاتهام، ووعدت بالتحقيق في الحادثة الدامية. ولكن الحقيقة لم تظهر إلى النور. واستقرّت بين الناس الرواية التي تفيد أن الحرس الملكي، دون أي تحدّ من أي نوع أو أية استثارة، اتخذ له مواقع قتالية، بإشارة من قائده، ثم فتح النار على الجمهور بلا رأفة.

ولمّا خيم الهدوء، لم يبق في البلدة أي من البدو المزعومين. بينما بقي في الساحة العامة عدد كبير من القتلى والجرحى : تسعة بهلوانات، وأربع حمامات، وسبعة عشر من ملوك ورق اللعب، وشيطان واحد، وثلاثة موسيقيين، ورفيقان اثنان من أمراء فرنسا، وثلاث أمبراطورات يابانيات.

وقد نجح خوزيه أركاديو الثاني، في حمّى الفوضى التي تلت الهلع الذي ساد الحشود، في حماية ريميديوس الجميلة. وحمل أوريليانو الثاني، بين ذراعيه، الملكة الدخيلة، التي تمزّق ثوبها وتلطخت عباءتها بالدم، ونقلها إلى البيت. وكانت تدعى فيرناندا ديل كاريبو. وكان سبق لها أن انتخبت كأجمل امرأة من بين خمسة آلاف من أجمل نساء البلاد. وقد جاؤوا بها إلى ماكوندو، بعد أن وعدوها بأن تعلن ملكة جمال مدغشقر.

فاعتنت بها أورسولا كما لو كانت ابنتها، ولم تشكّ البلدة في براءتها، بل أشفقت على سذاجتها. وبعد ستة أشهر من المذبحة، وحين شفي الجرحى، وذبلت آخر الأزهار الموضوعة على القبر الجماعي، ذهب أوريليانو الثاني إلى مدينتها البعيدة، حيث كانت تعيش مع أبيها، لكي يحضرها، ثم تزوج منها في ماكوندو، وأقام لها احتفالاً بهيجاً صاخباً، دام عشرين يوماً.

(١١)

بعد شهرين اثنين، كاد الزواج أن ينتهي بالفشل. ذلك أن أورليانو الثاني أراد أن يسترضي بيترا كوتيس، بعد أن آذاها بزواجه من فيرناندا ديل كاربيو، فدبّر التقاط صورة لها بثياب تبدو بها كملكة مدغشقر. وعندما علمت فيرناندا بالخبر حزمت أمتعتها في صناديق عرسها، وغادرت ماكوندو دون كلمة وداع. فلحق بها أورليانو الثاني على طريق الماريجو (منطقة المستنقعات). وبعد رجاء حار، ووعد بأن يصلح ما أفسده، أفلح في إرجاعها إلى البيت، وتخلى عن محظيته بيترا كوتيس.

ولم يبد على بيترا كوتيس أي علائم للقلق، لأنها كانت عالمة بقوتها. فهي التي جعلت منه رجلاً، ولم يكن قبل إلا طفلاً، حين أخرجته من مكتب ملكيادس، وقد امتلأ رأسه بأفكار خيالية، دون أن تكون له أية صلة بالواقع. فمنحته مكانة في العالم. وكانت الطبيعة قد صنعت منه كائناً انطوائياً منسحباً، يميل إلى التأمل في وحدته، فصنعت له مزاجاً نقيضاً للأول، مليئاً بالحياة، واسع الأفق. ومنحته الفرح بالحياة، ولذة المسرّة والتبذير، حتى حولته، باطناً وظاهراً، إلى الرجل الذي كانت تحلم به منذ يفاعتها.

هكذا، وبعد ذلك كله، تزوج، إذن، كما يتزوج الأبناء جميعاً، عاجلاً أو آجلاً. ولكنه لم يجرؤ على إعلامها مقدماً. وقد اتخذ موقفاً أشبه بمواقف الأطفال، متظاهراً بالغضب، مصطنعاً الحنق والضغينة

الكاذبة، لعله يضطر بيترا كوتيس لأن تبدأ القطيعة بنفسها. وفي أحد الأيام، وجه إليها أورليانو الثاني إهانة بلا مبرر، فتجنبت الوقوع في المصيدة، وصححت مسار الأمور. فقالت له:

ـ معنى كل ذلك أنك تريد أن تتزوج الملكة.

وشعوراً منه بالإحراج والخجل، تصنع أورليانو الثاني الغضب، ورد عليها بهجوم من الهياج النفعالي، زاعماً أنها لم تفهمه، وأنها قد أهانته وأساءت إليه، فانقطع عن زيارتها.

ولم تكف بيترا كوتيس لحظة عن ثقتها العظيمة بنفسها، ثقة الأيائل البرية في استراحة غفوتها. وتناهت إلى سمعها أنغام الموسيقى وأصوات الأسهم النارية احتفالاً بالزفاف. فلم تر في كل ذلك، ولا في صخب البهجة العارمة، غير نزوة طيش من نزوات أورليانو الثاني. واستوعبت في نفسها الحدث، وجعلت تهدىء بابتساماتها حنق الناس الذين كانوا يجيئون إليها راثين لمصيرها. وكانت تقول لهم:

ـ لا عليكم. فالملكات يقمن بخدمتي.

وقد قالت، مرة، لجارة لها، بثقة خفية، عندما جاءتها الأخيرة بشموع تضيء بها صورة الحبيب الضائع:

ـ إن الشمعة الوحيدة التي ستعيده مضاءة دوماً.

وكما تنبأت تماماً، عاد أورليانو الثاني إلى بيتها حالما انتهى شهر العسل. وقد جاءها، ومعه صحبه الدائمون ومصوّر جوّال. وقد حمل معه العباءة والثوب الأبيض، الملطخ ببعض بقع الدم، اللذين كانت فيرناندا ترتديهما يوم المهرجان. وعندما حمي وطيس الحفلة عصر ذلك اليوم، ألبس بيترا كوتيس ثياب الملكة، وأعلنها حاكمة مطلقة لمدغشقر مدى الحياة. ثم وزع على رفاقه نسخاً من صورتها. وأسلمت هي قيادها للعبة. ولكنها، في داخل نفسها، أشفقت عليه عندما أدركت الخوف

الفظيع الذي كان يعتمل في صدره، والذي دفعه إلى اختراع كل هذه المباذل استرضاء لها.

وفي الساعة السابعة مساء، استقبلته في سريرها، وهي ما تزال في ثياب الملكة. وكان قد مضى شهران على زواجه، فأدركت، على الفور، أن أمور زواجه لا تسير على ما يرام. فانتشت بلذة الانتقام. وبعد يومين لم يجرؤ خلالهما على الرجوع إليها، بل أرسل إليها، بدلاً من ذلك، وسيطاً ليرتب معها شكليات الافتراق وشروطها، أدركت عندها أنها كانت بحاجة إلى الصبر أكثر مما قدّرت. فقد بدا أنه مستعد للتضحية بنفسه في سبيل المظاهر. وهنا أيضاً حافظت على اتزانها، وسهّلت الأمور منذ البداية، وأظهرت من الخضوع والإذعان للواقع ما أكّد رأي من كانوا يقولون: إنها ليست سوى امرأة مسكينة. ولم تحتفظ من أوريليانو الثاني إلاّ بذكرى واحدة، وهي حذاؤه الجلدي الطويل اللمّاع، الذي كان يريد، كما قال هو نفسه، أن يلبسه في نعشه. وقد وضعت الحذاء في أسفل صندوق لها بعد أن لفته بالخرق، وأعدّت نفسها لانتظار لا بأس به. وكانت تقول في نفسها:

ـ يجب أن يعود، عاجلاً أو آجلاً، ولو من أجل أن يلبس هذا الحذاء.

ولم تنتظر طويلاً كما قدّرت.

فالواقع أن أوريليانو الثاني قد أدرك، منذ ليلة عرسه، أنه سوف يعود إلى بيترا كوتيس قبل اليوم الذي يجب أن يلبس فيه ذلك الحذاء الجلدي اللماع.

فقد كانت فيرناندا امرأة ضائعة في هذا العالم. فقد ولدت وشبّت على بعد ست مئة ميل من البحر، في مدينة حزينة، ما تزال تخترق شوارعها المبلطة عربات نواب الملك وهي ترفل في ليالي الفزع. وهي مدينة فيها اثنان وثلاثون ناقوساً تقرع أجراس الموت في الساعة السادسة

مساء. ولم ير أحد فيها الشمس تدخل بيت الإمارة المرصوف بحجارة القبور. الهواء نفسه كفّ عن الحياة بين سروات الدار، وفي ألوان الغرف الشاحبة، وفي القناطر الراشحة ماء في بستان الياسمين البري. ولم تعرف فيرناندا عن شؤون العالم إلاّ ما كان يتناهى إلى سمعها من نغمات حزينة يصدح بها بيانو في بيت مجاور، يعزف عليه عازف وطّد النفس خلال سنين طويلة على ألاّ يستريح أبداً.

كانت تجلس في غرفة أمها المريضة، تلك الغرفة الصفراء الخضراء بفعل الأشعة الغبراء النافذة إليها من زجاج النوافذ. فتصغي إلى التمارين الموسيقية التي كان صاحبها يدأب على عزفها بجد ونشاط، وإن كانت همته تفتر أحياناً. وكانت تشعر أن تلك الموسيقى كانت تأتي من العالم الحيّ، بينما كانت هي تتهالك وهي تضفر أكاليل الموتى من سعف شجر النخيل.

وكانت أمها تنضح عرقاً بفعل حمّى الساعة الخامسة، بعد الظهر، وهي تحدثها عن أمجاد الماضي. وقد رأت فيرناندا، عندما كانت صغيرة، امرأة جد جميلة ترتدي ثياباً بيضاء، في ليلة مقمرة، تعبر البستان إلى الكنيسة. ولم يقلقها في تلك المرأة العابرة إلا أنها كانت تشبهها في كل شيء. فكأنما كانت ترى نفسها بعد عشرين سنة. فقالت لها بين سعلتين من سعالها المتواصل:

ـ إنها أم جدتك الملكة. فقد اندق عنقها وهي تحاول أن تقطف غصن ياسمين، وماتت.

وبعد سنوات طويلة، وعندما شعرت فيرناندا أنها تشبه أم جدتها، بدأت تشك في رؤياها الطفولية، فوبختها أمها لقلة إيمانها، قائلة:

ـ نحن قوم أثرياء وذوو سلطان، وسوف تصبحين ملكة في يوم من الأيام.

وآمنت هي بذلك، مع أنهما لم تجلسا إلى الطاولة الكبيرة المغطاة بسمط من كتان، والحافلة بآنية الفضة، إلاّ لتتناولا فنجاناً من الشوكولا المذابة بالماء. وقد ظلت حتى يوم زواجها تحلم بمملكة أسطورية، على الرغم من أن أباها الدون فيرناندو اضطر إلى رهن البيت كي يشتري لها ثياب عرسها. وما كان ذلك عن سذاجة وجنون عظمة، ولكنها ربِّيت هكذا. فهي تذكر أنها منذ وعت وهي تقضي حاجتها في إناء من ذهب عليه شعار العائلة. وكانت أول مرة خرجت فيها من البيت، وهي في الثانية عشرة من عمرها، في عربة تجرها الخيول. فذهبت بها إلى الدير، مع أن المسافة لم تكن إلا عبور شارعين.

وقد عجبت زميلاتها لما رأينها تظل بعيدة عنهن، فتجلس في مقعد له مسند عال، ولا تشاركهن لعبهنّ في الفرص. وكانت الراهبات يقلن لهنّ:

ـ إنها تختلف عنكن. فسوف تصبح ملكة.

وصدّقت زميلاتها ذلك، لأنها كانت أجمل من رأين في حياتهن من الفتيات، وأكثرهن أناقة وأطهرهن. وقد تعلمت، في ثماني سنوات، نظم الشعر باللاتينية، والعزف على آلة الكلافسان، وتعلمت كيف تتحدث عن الصقور والبزاة وصيدها مع الرجال، وفي شؤون الدين مع الأساقفة، وأن تناقش في أمور الدولة مع الحكام الأجانب، وفي شؤون الله مع البابا. وبعد ذلك، عادت إلى بيت أهلها كي تضفر أكاليل الموت من سعف النخيل.

وقد وجدت البيت كأنما قد نهب، فلم يبق فيه سوى الأثاث الضروري. أما الشمعدانات وأواني الفضة، وأدوات البيت الأخرى، فقد بيعت تباعاً لدفع نفقات دراستها. ثم قضت أمها تحت وطأة الحمّى المسائية. وكان أبوها، الدون فيرناندو، الذي كان يرتدي بزته السوداء،

ويكاد يختنق من ضغط قبته المنشّاة، ويعلق على صدره سلسلة ذهبية. يعطيها كل يوم اثنين قطعة فضية من أجل مصروف البيت، ويأخذ الأكاليل الجنائزية التي ضفرتها في أسبوعها المنصرم. كان يقضي معظم يومه حبيس مكتبه، لا يخرج إلا نادراً. حتى إذا فعل، فكان يعود قبل السادسة مساء، ليحرك حبات سبحته وهو يتلو دعاءه. لم يتخذ قط له صديقاً حميماً. ولم تسمع هي، في حياتها، شيئاً عن الحرب التي دمرت البلاد ولم تنقطع البتة عن سماع تمارين البيانو في الثالثة بعد ظهر كل يوم.

وكانت قد بدأت تنسى أحلامها في أن تصبح ملكة، حين سمعت طرقتين خفيفتين على الباب. وفتحت الباب، فرأت عسكرياً جميل الطلعة، احتفالي الحركات، في وجنته ندبة، وعلى صدره وسام. فدخل إلى مكتب أبيها، وأغلقا الباب. وبعد ساعتين جاءها أبوها في مشغل الخياطة، فقال لها:

ـ جمّعي حاجاتك، سوف تقومين برحلة طويلة.

وهكذا جاؤوا بها إلى ماكوندو. وبين عشية وضحاها، وبضربة واحدة حاسمة، أوردتها الحياة موارد الواقع، بعد أن قضى ذووها سنوات طويلة وهم يبعدونها عنه ويخفونه عنها.

وعندما عادت إلى البيت، حبست نفسها في غرفتها كي تنتحب وتبكي، فلا تعير انتباهاً لرجاء الدون فرناندو. كانت تحاول جاهدة أن تنسى جرح تلك المهزلة الفظيعة. وكانت قد أقسمت ألاّ تخرج من غرفتها إلاّ ميتة، عندما وصل أوريليانو الثاني كي يعيدها. وكان ذلك محض مصادفة وحظ. ذلك أنها، وقد أذهلها الغضب وأحنقها الخجل مما حدث، كانت قد كذبت عليه كي لا يعرف هويتها الحقيقية. وكان الدليل الوحيد عليها، عند أوريليانو الثاني عندما انطلق كي يعود بها، هو

لهجتها، وهي لهجة أهل الهضاب العالية، التي لا يمكن أن يشبهها فيها أحد، ومهنتها في ضفر الأكاليل الجنائزية من سعف النخيل.

بحث عنها دون توقف، وأبدى في بحثه تهوراً مخيفاً شبيهاً بتهور خوزيه أركاديو بوينديا، عندما تسلق الجبال كي ينشىء ماكوندو، وغروراً أعمى لا يضارعه إلا غرور أوريليانو بوينديا، الذي أشعل كل تلك الحروب التي لا طائل فيها، وعناداً صلباً كعناد أورسولا في الحفاظ على استمرار سلالتها. وهكذا بحث أوريليانو الثاني عن فيرناندا دون يأس أو ملل. سأل عن الأماكن التي تباع فيها الأكاليل الجنائزية، فاقتاده بعضهم من بيت إلى بيت، كي ينتقي أفضلها. حتى إذا سأل أين يمكن أن توجد أجمل امرأة يمكن أن تراها عين على هذه الأرض، جاءته كل الأمهات ببناتهن. وضاع في دروب ضبابية، وفي آماد زمنية مآلها إلى النسيان، وفي دهاليز تنتهي إلى رحيل الوهم. قطع الفيافي الصفراء المترامية الأطراف، يردد فيها الصدى أفكاراً ما أفصح عنها لسان، ويبعث فيها القلق سراباً مشؤوماً.

وانتهى به المطاف، دون نتيجة، إلى بلدة مجهولة، كل أجراسها تقرع معلنة نعياً. فعرف مباشرة، ولو أنه لم يكن قد رأى في حياته، وأن أحداً لم يسبق له أن وصف له، الجدران المتآكلة بملح العظام، والشرفات المنهارة بعد أن نخرها الفطير وأنهك أخشابها. وعلى الباب رأى لافتة مسمّرة، كاد يمحوها المطر، وكانت أكثر لافتة تدعو للحزن في الدنيا. وعليها :

ـ أكاليل جنائزية للبيع.

بين تلك اللحظة والصباح الجليدي، الذي غادرت فيه فيرناندا البيت، بحراسة رئيسة الراهبات، لم يمض غير قليل من الزمن، لم يكد يكفي كي تخيط لها الراهبات جهازها، وكي تكدس، في الصناديق الستة،

الشمعدانات وأواني الفضة وإناء غرفة النوم الذهبي، وبقايا أخرى كثيرة، بعضها لا نفع له، هي كل ما تخلف عن كارثة عائلية انتظرت قرنين كي تصل إلى نهايتها.

واعتذر الدون فيرناندو عن تلبية الدعوة لمرافقتهما، ووعد بأن يزورهما فيما بعد، وعندما يفرغ من أشغاله الحالية. وما إن بارك ابنته وودعها، حتى انصرف إلى مكتبه، وأغلق على نفسه بابه، كي يسجل الإعلان، بخطوط حزينة، عليها شارة العائلة، التي يمكن أن تكون أول اتصال إنساني بين فرناندا وأبيها. فقد كان ذلك، عندها، يوم ميلادها الحقيقي. أما عند أوريليانو الثاني فقد كانت، تقريباً في آن معاً، بداية السعادة ونهايتها.

كانت فيرناندا تحمل معها تقويماً ثميناً له مفاتيح مذهبة صغيرة. أشّر فيه مرشدها الديني، بحبر بنفسجي، على أيام الصيام في العلاقة مع زوجها. وهي لا تشمل أيام الجمعة العظيمة، والآحاد، وأول جمعة من كل شهر، وأيام التراجع، والتضحية، والدورة الشهرية. فإذا الأيام النافعة في تقويمها قد اختزلت إلى اثنين وأربعين يوماً، كانت موزعة مبعثرة في متاهة كأنها شبكة عنكبوت بنفسجية. وظن أوريليانو الثاني أن الزمن كفيل بحل مشكلة تلك الشبكة العدائية، فمدّد احتفالات العرس إلى أبعد مما كان منتظراً. وأتعب أورسولا ما كانت ترميه من زجاجات البراندي والشمبانيا الفارغة، كي لا تحشر البيت. وكان يحيرها أن العروسين كان ينامان في ساعات مختلفة، وكل منهما في غرفة، بينما كانت الأسهم النارية ما تزال تنطلق، والموسيقى تصدح، ويستمر ذبح المواشي احتفالاً. فتذكرت أورسولا تجربتها، وتساءلت ما إذا كانت فيرناندا تلبس حزام العفة، مما سوف يثير الأقاويل في البلدة، عاجلاً أم آجلاً، ويتسبب في حصول مأساة. ولكن فيرناندا اعترفت لها أنها،

بساطة، تنتظر مرور أسبوعين قبل أن تسمح لزوجها بمسها للمرة الأولى.

وعند انتهاء الفترة فعلاً، فتحت فيرناندا باب غرفة نومها، ووطدت نفسها على التضحية، وكأنها من أضاحي التفكير، واستطاع أوريليانو الثاني أن يرى أجمل امرأة على وجه الأرض : في عينيها بريق عين حيوان خائف، وقد انتشر شعرها النحاسي الطويل على الوسادة. أدهشه مشهدها، فتوقف لحظة، وهو لا ينتبه إلى أن فيرناندا كانت قد ارتدت قميص نوم أبيض طال حتى كعبيها، وتدلى كمّاه حتى رسغيها، وتتوسطه صدرية مستديرة كبيرة موشحة جميلة تغطي أسفل بطنها. ولم يستطع أوريليانو الثاني أن يكبت ضحكة عالية ترددت في أرجاء البيت، وقال :

ـ هذا أفحش ما رأيت في حياتي. فقد تزوجت راهبة من راهبات العفة.

وبعد أن أمضى شهراً دون أن يفلح في إقناع زوجته بأن تنزع عنها قميص النوم، ذهب إلى بيترا كوتيس والتقط لها الصورة بلباس الملكة، ولما استرضى فيرناندا وأرجعها إلى البيت، رضخت لمطالبه في حمّى المصالحة، ولكنها لم تستطع أن تمنحه الراحة التي كان يمني نفسه بها عندما رحل كي يعود بها من المدينة ذات الاثنين والثلاثين ناقوساً كنسياً. فلم يجد أوريليانو الثاني لديها غير إحساس عميق بالحزن. ولاحظت فيرناندا، قبيل ميلاد طفلهما الأول، أن زوجها قد بدأ يعود سراً إلى فراش بيترا كوتيس.

واعترف هو لها بذلك بذلة وحزن، قائلاً :

ـ هذا ما حدث فعلاً.

وتابع موضحاً :

ـ كان عليّ أن أفعل ذلك من أجل أن تستمر الحيوانات في التكاثر.

واحتاج لبعض الوقت كي يقنعها بتلك الذريعة الغريبة. ولكنها، أمام الأمر الواقع، وبعد أن قدّم لها أدلة لا تدحض، اكتفت بأن تحصل منه على وعد بألا يفاجئه الموت وهو في سرير عشيقته. وعاش الثلاثة على هذه الشاكلة راضين. وظل أوريليانو الثاني محباً وعاشقاً وفياً لهذه وتلك. وراحت بيترا كوتيس تتباهى بعد المصالحة، بينما كانت فيرناندا تتظاهر بجهل الحقيقة.

ولكن ذلك الحلف لم ينجح تماماً في ضمّ فيرناندا إلى العائلة. فلطالما ألحّت أورسولا عليها لتتخلص من وضع اللفحة الصوفية بعد أن تضاجع زوجها والتي كانت مثار همس لدى الجيران. ولكن جهودها ذهبت أدراج الرياح. ولم تستطع أن تقنعها باستعمال الحمام، أو مغسلة الليل، ولا أن تبيع إناءها الذهبي للعقيد أوريليانو بوينديا، كي يحوله إلى سمكات صغيرة. وكانت أمارانتا تتضايق من لهجتها وطريقتها الخاصة بالكلام، ومن عادتها في تسمية الأشياء تورية. وجعلت تتعمد إغاظتها، بأن تتحدث بالطريقة العصفوريّة في حضورها :

ـ إنز بعضز النزاس يزاتزا ضياقزون فزي طزيريزي فتي زي كزالزا مزهزم.

وانزعجت فيرناندا، يوماً، من سخرية أمارانتا، وأرادت أن تعرف ما تقوله. ولكنّ الأخيرة، حرّفت كلامها، وأجابت دون تورية :

ـ كنت أقول أنك واحدة من أولئك اللاتي يخلطن بين إستهن والجمعة العظيمة.

وانقطع الحديث بينهما منذ ذلك الحين. حتى إذا اضطرتهما الظروف لذلك تراسلتا، أو تكلمتا بطريقة غير مباشرة. ولم تتخلّ فيرناندا، رغم عداء العائلة، عن إرادتها في إملاء تقاليدها الموروثة. فتخلصت أولاً من عادة تناول الطعام في المطبخ. وإذا جاع أحد أجبرته على الانتظار حتى

وقت الطعام المحدّد، على الطاولة الكبيرة في غرفة الطعام المغطاة بسماط الكتان، وقد وضعت عليها الشمعدانات والأواني الفضية. ولم تستغرب أورسولا ذلك الضرب من النظام، بل رأته شيئاً عادياً من صميم الحياة اليومية. ولكنه شيئاً فشيئاً، ولّد في البيت جواً مصطنعاً. وكان أول من ثار عليه خوزيه أركاديو الثاني على الرغم من طبعه الهادىء. ولكن تلك العادات ترسخت في البيت، وكذلك عادة الدعاء مع السبحة قبل تناول العشاء، مما أثار حب استطلاع الجيران. وانتشرت شائعة مفادها أنّ آل بوينديا لا يجلسون إلى طعامهم كالآخرين، بل حوّلوا تناوله إلى صلاة حقيقية كبرى. ثم اصطدمت خرافات أورسولا، ومنشؤها إلهام اللحظة لا التقليد، بما ورثته فيرناندا عن أهلها من خرافات المناسبات المكتوبة لكل حادثة. واستمرت بعض العادات القديمة ما بقيت أورسولا على قواها، وبقي لإلهامها بعض التأثير في حياة العائلة. ولكنها حين فقدت بصرها، وانزوت، تحت وطأة السنين، في إحدى زوايا البيت، أكملت الدائرة القاسية التي بدأتها فيرناندا منذ وصولها، وانغلقت. وغدت هي سيدة البيت المتصرفة بمصيره أكثر من أي إنسان آخر. أما سانتا صوفيا (التقية) فكانت ما تزال تتاجر بالكاتو والكاراميلا المشكلة على هيئة حيوانات صغيرة، كما شاءت أورسولا. . فرأت فيرناندا في تلك المهنة أمراً لا يليق، فأوقفتها بعد قليل.

وأما أبواب الدار التي كانت تظل مشرعة منذ بزوغ الفجر حتى ساعة النوم، فقد صارت تغلق عند القيلولة، بحجة أن الشمس كانت تجعل حرارة الغرف لا تطاق، ثم ما لبثت الأبواب أن أبقيت مغلقة دائماً تقريباً. وأزيلت باقة الآس كما أزيل رغيف الخبز، اللذان كانا معلقين على باب الدار، منذ إنشاء ماكوندو، وحلت محلهما مشكاة فيها قلب يسوع الأقدس.

وتنبه العقيد أوريليانو بوينديا لهذه التعديلات، وحدس بعواقبها. فقال محتجاً:

ـ نحن في سبيلنا إلى أن نصبح أناساً من علية القوم. وإذا دامت الحال على هذا المنوال فسوف نقاتل النظام المحافظ مرة أخرى، ولكن، هذه المرة، لكي نقيم مكانه ملكاً.

وتحاشت فيرناندا، بلياقتها، أن تصدمه مباشرة. فقد كان لا يعجبها فيه استقلال طباعه، وكرهه للكبح الاجتماعي مهما كان نوعه. كان يضايقها منه فنجان القهوة في الساعة الخامسة صباحاً، وفوضى مشغله، ودثاره المنفوش، وعادته في القعود على باب الدار في أصيل كل يوم. ولكنها سمحت ببقاء ذلك الشذوذ في آلية الحياة العائلية، لاقتناعها بأن العقيد العجوز لم يكن سوى حيوان هدأته السنون وزوال الأوهام، ولو أنه يظل قادراً، في سورة عجز ثائرة، على أن يقتلع البيت من أساسه. وعندما قرّر زوجها أن يسمي ابنهما الأول باسم جدّه لم تجرؤ على المعارضة لأنها كانت قد وصلت البيت منذ عام فقط. ولكنها، عندما ولدت ابنتهما الأولى، أعلنت دون تردد أو لبس، أنها ستسميها روناتا باسم أمها، مع أن أورسولا كانت قد قررت أن تسميها ريميديوس. ولعب أوريليانو الثاني دور الوسيط، وأعجبه دوره في المفاوضات التي آلت إلى أن تعمّد الطفلة باسم روناتا ريميديوس. وظلت فيرناندا تسميها روناتا دون إضافة، بينما كانت عائلة زوجها، والبلدة جميعاً تسميها ميمي، تصغيراً لريميديوس.

ولم تكن فيرناندا، في البدء، تتحدث عن أهلها. ولكنها، مع الزمن، أخذت تجعل من أبيها مثلاً أعلى. كانت تتحدث عنه على المائدة وكأنه رجل لا مثيل له. رفض كل المظاهر الباطلة، وأنه كان في سبيله لأن يصبح قديساً. ودهش أوريليانو الثاني لهذا التقديس العارم المفاجىء

لحميه، فلم يستطع أن يكتم نكتة مهذبة، حول هذا الموضوع، في غياب زوجته. وجارته العائلة في ذلك حتى أورسولا، وهي المشهورة بحرصها المطلق وعنايتها الفائقة بانسجام العائلة، والتي كانت تتألم في سرها لكل مماحكة أو احتكاك بين أعضاء الأسرة، حتى أورسولا أجازت لنفسها أن تقول مرة إن مستقبل حفيد حفيدها في أن يكون البابا قد بات أكيداً. وتعلل ذلك بقولها :

ـ لأنه حفيد قديس، وابن ملكة وسارق بهائم.

وتعوّد الأطفال، على الرغم من تلك المؤامرة الضاحكة، على التفكير بأن جدهم كائن خرافي، يكتب لهم القصائد الدينية في رسائله، ويرسل لهم، في كل عيد ميلاد، صندوق هدايا كبيراً جداً، لا يدخل من باب الدار إلا بعد جهد كبير. ولم تكن الهدايا، في الواقع، غير بقايا الميراث الأميري. وقد استخدمت لإقامة مذبح في غرفة الأطفال، محاط بتماثيل للقديسين بأحجامهم الطبيعية، ولهم عيون بلورية تمنحهم مظهر الأحياء. أما ثيابهم فكانت من نسيج فيه توشيح فني، لم يلبس قط أهل ماكوندو أحسن منها. وشيئاً فشيئاً تحولت أبهة البيت العتيق الحزينة إلى فخامة بيت آل بوينديا المنير. وقد دفع ذلك التحول أوريليانو الثاني إلى التعليق قائلاً :

ـ لقد أرسلوا إلينا كل المقبرة العائلية، ولم يبق إلاّ أن يرسلوا إلينا شجرات الصفصاف الباكي وشواهد القبور.

وكان الأطفال يمضون العام بطوله وهم ينتظرون شهر كانون الأول (ديسمبر)، مع أنّ الصناديق التي كانت تصلهم لم تكن قط تحوي ما يفيد منه الأولاد في لعبهم. ولكن الهدايا القديمة كانت أشياء نادرة وجديدة على البيت. وفي عيد الميلاد العاشر، وبينما خوزيه أركاديو الصغير يستعد للذهاب إلى المدرسة، وصل الصندوق الضخم أبكر من موعده في السنوات السابقة وقد سمّره الجدّ بعناية. وإمعاناً في الحرص، طلاه

بطبقة واقية من القار. وألصق به بطاقة العنوان المعتادة، مكتوبة بالحروف القوطية :

ـ «إلى السيدة رفيعة القدر السنيورا الدونا فيرناندا ديل كاربيو دو بوينديا».

وبينما كانت في غرفتها تقرأ الرسالة، سارع الأطفال إلى فتح الصندوق. وساعدهم أوريليانو الثاني، فنزعوا طبقة القار الواقية، واقتلعوا مسامير الغطاء، ورفعوا طبقة النشارة، فوجدوا في الداخل صندوقاً آخر طويلاً من الرصاص مغلقاً بمسامير لولبية (براغي) ضخمة من النحاس. أخرج أوريليانو الثاني المسامير اللولبية الثمانية أمام إلحاح الطفلين. ولم يكد ينزع صفيحة الرصاص حتى أجفل، مطلقاً صيحة عالية، وأبعد طفليه عن منظر الدون فيرناندو، وقد ارتدى بزة سوداء، واستقرّ على صدره صليب، وقد تفسخت بشرته وبدأت تخرج غازات سامة، بعد أن بدأ ينضج ببطء في سائل تصدر عنه فقاعات كاللآلىء الحيّة.

بُعَيْد ولادة طفلتهما، أعلنت الحكومة عن يوبيل العقيد أوريليانو بوينديا، دون أن يكون ذلك منتظراً من أحد. وأعلنت الحكومة عن رغبتها في الاحتفال باليوبيل، بمناسبة ذكرى معاهدة السلام في نيرلانديا. ولم يكن ذلك القرار منسجماً مع السياسة الحكومية، فرفض العقيد ذلك التقدير، وأعلن معارضته الشديدة له، قائلاً :

ـ إنها المرة الأولى التي أسمع فيها بكلمة يوبيل.

ولكن مهما يكن معناها فلا بد أن تكون حيلة.

وازدحم مشغل الصياغة الصغير بالمبعوثين. وعاد المحامون بأثوابهم الداكنة، وهم أكبر سناً وأكثر كآبة من ذي قبل، عندما كانوا يحومون حول العقيد كالغربان. ولما رآهم بين يديه، وهم الذين كانوا أصلاً سبب

تعقد الحرب، لم يستطع أن يطيق مكر تهانيهم. فأمرهم بالانصراف عنه، وأصرّ على أنه لم يكن بطلاً للأمة كما قالوا عنه، وأنه ليس سوى صانع حرفي بلا ذكريات. وهو لا يحلم إلاّ بأن يموت تعباً وقد نسيه الناس. وأثار حفيظته أكثر ما علمه من أنّ رئيس الجمهورية بالذات كان يفكر في حضور الاحتفال في ماكوندو، كي يقلده وسام الاستحقاق.

فأرسل العقيد أورليانو بوينديا إلى رئيس الجمهورية يخبره حرفياً أنه ينتظر فعلاً، بفارغ الصبر، تلك المناسبة المستحقة، ولو أنها جاءت متأخرة، لكي يطلق عليه رصاصة، لا حساباً له على تدابير نظامه الفاسد الظالم وحسب، وإنما لأنه أخلّ بواجبات الاحترام اللازمة لعجوز لم يصدر عنه أي أذى لأحد. ولقد بلغت الشدة التي صاغ بها تهديده درجة دفعت رئيس الجمهورية إلى إلغاء رحلته في آخر لحظة. فأرسل له الوسام مع أحد ممثليه الشخصيين. وتعرّض العقيد جيرينيلدو ماركيز لكل أنواع الضغط من المسؤولين، مما حدا به إلى مغادرة سرير الكساح، والذهاب لزيارة رفيق السلاح القديم لعله يقنعه. وعندما رأى العقيد أورليانو بوينديا ذلك المقعد المتحرك. وقد حمله أربعة من الرجال، وتمدّد بين وسائده الكبيرة صديقه الذي شاركه انتصاراته وعايشه هزائمه في عمر الشباب، لم يشك لحظة في أنه جشّم نفسه كل ذلك العناء كي يعبر له عن شدّ أزره ومعاضدته. ولكنه عندما علم عن دافع الزيارة، طرده من المشغل، قائلاً :

ـ الآن اقتنعت متأخراً، بانني كنت يمكن أن أسدي لك معروفاً عظيماً لو أنني سمحت لهم بإعدامك.

وهكذا، جرى الاحتفال باليوبيل دون أن يحضره أي واحد من أفراد العائلة. واتفق أن تكون المناسبة مع أسبوع المهرجان (الكرنفال). ولم يستطع أحد أن ينتزع من رأس العقيد أورليانو بوينديا الفكرة التي كان

يتشبث بها، عن أن الحكومة خططت عمداً للتوافق بين الأمرين؛ كي تزيد من قسوة السخرية منه. وكان في مشغله يسمع أنغام الموسيقى العسكرية تكريماً له، ودويّ المدافع المنطلقة على شرفه، والأجراس التي كانت تقرع تسبيحة الشكر لله، ويسمع بعضاً من عبارات الخطاب الذي كان يلقى أمام باب داره، عندما أطلقوا اسمه على الشارع. وبلغ به الغضب ذروته، وعصف به ضغطه، واغرورقت عيناه بالدموع، للمرة الأولى منذ أيام الهزيمة. وتألم، أشد ما تألم، لأنه لم تعد له جرأة الشباب لكي يعلنها حرباً تمحو بالدم آخر آثار النظام المحافظ. وعندما تلاشت أصداء التكريم والاحتفال، جاءته أورسولا وقرعت عليه باب مشغله، فأجاب :

ـ لا تزعجوني، فأنا مشغول.

وألحت أورسولا بصوتها العادي المألوف :

ـ افتح، فليس لهذا علاقة بالاحتفال.

وعندها رفع العقيد أورليانو بوينديا عارضة الباب، فرأى من فرجته سبعة عشر رجلاً في هيئاتهم وأشكالهم المختلفة تماماً، على الرغم مما كان يبدو عليهم جميعاً طابع من الوحدة يكفي لمعرفة هويتهم، ولو كانوا في مختلف أصقاع الأرض.

كانوا أبناءه. وقد حضروا من غير اتفاق بينهم، بل دون أن يعرف أحدهم الآخر، من كل أنحاء الشاطىء المترامية الأطراف الضائعة، عندما سمعوا بأنباء اليوبيل. كان كل منهم يحمل باعتزاز اسم أورليانو مع كنية أمه.

وأقاموا في البيت أياماً ثلاثة، فقلبوا عاليه سافله، حتى لكأن حرباً قد نشبت فيه. بينما كانت أورسولا في غاية الرضا من أعماق قلبها، وكانت فيرناندا في غاية اشمئزازها. وبحثت أمارانتا، بين أوراق الماضي، عن

السجل الذي قيدت فيه أورسولا اسم كل من الأولاد، وتاريخ ميلاده، ويوم عمّاده. وعندما وجدته أضافت إلى اسم كل واحد منهم عنوانه الحالي.

وقد كانت تلك القائمة كفيلة بأن يراجع فيها المرء عشرين سنة من الحرب، ويلمّ بالتفاصيل عن رحلات العقيد الليلية، منذ ذلك الفجر الذي رحل فيه عن ماكوندو، على رأس واحد وعشرين رجلاً، على طريق ثورة خيالية، حتى اليوم الذي عاد فيه آخر مرة بدثار خشن ملطخ بالدم.

ولم يترك أورليانو الثاني هذه الفرصة تفلت منه فاحتفل بمجيء أبناء عمّ أبيه ، وأقام وليمة كبرى أراق فيها الشمبانيا وعزف على الأكورديون . وقد كان تفسير ما فعله رغبة منه في التعويض، ولو متأخراً، عما فقده لغيابه عن المهرجان بسبب اليوبيل. ولقد حطموا في الحفلة نصف أطباق البيت وصحافه، وهشموا شجيرات الورد، وهم يطاردون ثوراً كي يركبوه حماراً. وقتلوا الدجاج برصاص المسدسات، وأجبروا أمارانتا على أن ترقص على أنغام موسيقى بيترو كريسبي الحزينة، وأقنعوا ريميديوس الجميلة بلبس بنطال رجالي، وتسلق عمود مدهون بالشحم، وأفلتوا في غرفة الطعام خنزيراً مصبوغاً بالدهن فأوقع فيرناندا.

ولكنّ أحداً لم يحزن لذلك، ولم يندم أحد لما أصاب البيت من خراب وتلف. فقد كان ما أصابه عبارة عن هزة صحيّة.

في البداية، استقبلهم العقيد أوريليانو بوينديا ببعض الشك، فقد كان يشك في نسب بعضهم. ولكنه، من بعد، طار بهم فرحاً. وأعطى كلاً منهم سمكة صغيرة ذهبية. حتى خوزيه أركاديو الثاني، الذي كان معروفاً بتقوقعه وانزوائه، نظّم لهم بعد ظهر أحد الأيام، ليقضوه في مشاهدة صراع الديكة. وكاد ذلك ينقلب إلى مأساة، لأن أكثر

الأوريليانويين(١) كانوا مهرة في التحكيم في صراع الديكة. فاكتشفوا، من النظرة الأولى، خداع الأب أنطونيو إيزابيل وحيله. وتبدّت لأوريليانو الثاني إمكانية أفراح وسرور لا حدود لها بوجود هؤلاء الأقرباء الماجنين المعربدين. فقرر أن يبقيهم جميعاً في ماكوندو للعمل معه. ولم يقبل ذلك إلا واحد منهم ، هو أوريليانو تريست (الحزين) . وكان خلاسياً ، عملاقاً ، عنيفاً ، كجده يميل إلى الاكتشاف . وكان قد جاب نصف العالم بحثاً عن الثورة ، ولم يكن يهمه المكان الذي يستقر فيه .

أما الآخرون، على الرغم من كونهم عازبين، فقد كانوا يعتبرون مصيرهم محتوماً. فقد كانوا صناعاً ماهرين، من الحرفيين الذين يلزمون بيوتهم ويعيشون بسلام. وفي يوم أربعاء الرفات، وقبل أن يعودوا من حيث أتوا، ليتفرقوا على الشاطىء الطويل، عزمت أمارانتا أن تجعلهم يرتدون ثياب الأحد، ليرافقوها إلى الكنيسة. ورافقوها فعلاً، ولكن عن تسلية، لا عن إيمان، إلى المائدة المقدسة. فرسم الأب أنطونيو إيزابيل على جباههم صليب الرفات بالرماد. وعندما عادوا إلى البيت حاول أصغرهم أن ينظف جبينه. فوجد أن الإشارة لا تمحى. وكذلك كان شأن إخوته. فجربوا بالماء والصابون، والتراب والفرشاة. ثم جربوا بحجر الخفّاف ومحلول القلي، ولكنهم لم يفلحوا في محو الصليب عن جباههم. أما أمارانتا وبقية المصلين فقد أزالوه بلا صعوبة. فقالت لهم أورسولا، وهي تودعهم :

ـ لن يخطئكم أحد بعد الآن. فأنتم مميّزون.

فانطلقوا راجعين جماعة، تتقدمهم الموسيقى وطلقات الأسهم النارية. وقد خلفوا في البلدة شعوراً بأن سلالة آل بوينديا قد نثرت بذورها لتبقى إلى قرون قادمة . وأقام أوريليانو تريست (الحزين) ، وهو الوحيد الذي بقي منهم ،

(١) أي الأولاد، لأن كل واحد منهم كان يحمل اسم أوريليانو مضافا إلى كنية أمه.

في ضاحية البلدة. وظلّ، وصليبه على جبينه، يعمل في معمل الجليد الذي حلم به جدّه الأول خوزيه أركاديو بوينديا أيام عيشه في دوّامة الاختراع.

وبعد بضعة أشهر من وصوله، وبعد أن عرفته البلدة، واحترمه أهلها، بدأ أوريليانو تريست (الحزين) يبحث عن بيت ليأوي إليه ويأتي بأمه وأخته العازبة (وهي ليست بنت العقيد أوريليانو بوينديا). فأعجبه البيت القديم الكبير، الذي كان مهدّماً، في زاوية الساحة العامة، والذي كان يبدو خاوياً. وسأل عن أصحابه فقيل له إنه ليس لأحد، وإنه كانت تعيش فيه، من قبل، أرملة وحيدة تتغذى بالتراب وكلس الجدران، وأن أحداً لم يشاهدها في الطريق لسنين خلت سوى مرتين، وهي تلبس قبّعة مغطاة بزهور اصطناعية صغيرة، وتحتذي حذاء قديماً فضي اللون. وكانت عندها تعبر الساحة العامة في طريقها إلى مكتب البريد، كي ترسل رسائلها إلى الأسقف. وأضافوا إلى قولهم أن رفيقتها الوحيدة كانت خادمة قاسية، تقتل القطط والكلاب وأي حيوان يدخل البيت، وتلقي بجثثها إلى الخارج، كي تسمم برائحتها النتنة جوّ البلدة. وقد مضى وقت طويل على آخر حيوان مقتول جففته الشمس. فاعتبر الناس أن صاحبة البيت وخادمتها قد ماتتا قبل نهاية الحرب، ولم يبق البيت صامداً إلا لأن السنين الأخيرة لم تشهد شتاء قاسياً أو أنواء شديدة. وقد تآكلت رزات مصاريع الأبواب بفعل الصدأ، وكادت تسقط لولا ما كان يسندها من بيوت العناكب. وبدا على النوافذ كأنها لحمت بفعل الرطوبة، ولطول ما أقفلت. وقد تشظى بلاط الأرض، وعلته الأعشاب والزهور البرية وعششت في شقوقه السحالي، وباضت فيه حيوانات صغيرة أخرى كثيرة، وكان كل ذلك يؤكد الرأي القائل بأن أي إنسان لم يعش في البيت منذ نحو نصف قرن على الأقل. ولم ينتظر أوريليانو

الحزين، ولم يبحث، وهو الشاب النشيط، عن مزيد من الأدلة كي يبدأ العمل.

دفع الباب الرئيس بكتفه، فتساقطت أخشابه المنخورة دون صوت، في انهيار مكتوم لم يندّ عنه غير غبار الزمن وبقايا الأعشاش والديدان الترابية. وتوقف أوريليانو الحزين في الباب. حتى انقشعت غمامة الغبار، فاكتشف في وسط الغرفة، تلك المرأة الهزيلة، التي كانت ما تزال ترتدي ثياب القرن الماضي، وعلى جمجمتها المنتوفة بعض شعرات صفر. ولم يبق منها ما يلفت النظر سوى عينيها الواسعتين الجميلتين، وقد انطفأ فيهما آخر بريق للأمل. وتفلّعت بشرة وجهها من جفاف الوحدة.

وارتعش أوريليانو تريست (الحزين) أمام ذلك المشهد، الذي بدا كأنما هو من عالم آخر، حتى كاد ألا يرى المسدس العسكري القديم الذي كانت تلك المرأة تصوبه نحوه. وتمتم قائلاً:

ـ المعذرة.

وبقيت في مكانها، من وسط الغرفة، كأنها تمثال رخام عتيق. وقد تراكم في الغرفة أثاث قديم. وأخذت تتفحص بدقة ذلك العملاق الداخل عليها، بمنكبيه العريضين ووشم الصليب على جبينه. فكانت كأنما تراه خلال غيمة من غبار، عبر ضباب عصر عاشته، وعلى كتفه بندقية صيد بطلقتين، وفي يده قلادة شُكّت فيها الأرانب. فصاحت بصوت خفيض:

ـ بحق الله عليك. أفليس حراماً أن تعيدوا إليّ تلك الذكرى الآن؟!.

فقال لها أوريليانو تريست (الحزين):

ـ أريد أن أستأجر البيت.

وعندها صوبت المسدّس إلى الصليب على جبينه، وقد قبضت عليه

بيد ثابتة، ورفعت الزناد بحزم، وأمرته قائلة :

ـ اخرج من هنا.

روى أوريليانو الحزين تلك الحادثة للعائلة، على مائدة العشاء. فعجبت أورسولا، ولم تقو على كبح دموعها. ثم صاحت وهي تمسك رأسها بيديها :

ـ يا إلهي، أما زالت حية تعيش !!.

لقد جار الزمن، وجارت الحرب وأعباء الدنيا عليها، فأنستها روبيكا. وكانت الوحيدة التي لم تبرح روبيكا وعيها وخيالها لحظة وحيدة هي الحاقدة أمارانتا. فقد كانت تتصورها تتعفن في حجرها. وكانت قد بدأت هي الأخرى تشيخ وتتقوقع . كانت تفكر فيها عند الفجر، حين يستيقظ جليد قلبها في فراشها اليباب. وكانت تذكرها عندما تغسل نهديها المتهدلين، وبطنها المترهل، وساقيها الناحلين بالماء والصابون : عندما تلبس شلحات الشيخوخة البيضاء وخراطاتها ذوات الطيّتين، وعندما تبدّل رباط يدها الأسود، ذكرى العقاب الفظيع، فقد كانت أمارانتا ما تفتأ تفكر بروبيكا دون انقطاع، في كل الأوقات، سواء استيقظت أم غفت، وفي أحسن لحظات عمرها وفي أسوئها. فقد حجّمت الوحدة ذكرياتها، وأحالت إلى رماد معظم الحنين الضعيف، الذي منحته الحياة لقلبها، بينما نقت الوحدة بقايا تلك الذكريات المرّة وجمّلتها وكبّرتها وخلدتها. . فهي التي عرّفت ريميديوس الجميلة بوجود روبيكا. فكانت كلما مرّت أمام بيتها الخرب، روت لها حادثة مؤلمة أو حكاية حزينة. لعلّ ابنة أخيها(١) تشاركها الضغائن التي تضنيها، فتحيا الضغينة بعد موتها. ولكنها لم تبلغ مرادها، لأن ريميديوس الجميلة كانت

(١) هي في الواقع ابنة ابن أخيها ، أي حفيدته .

في منجاة عن كل العواطف التي تمليها الأهواء، بل كانت في منأى عن عواطف الآخرين.

أما أورسولا فقد نما عندها شعور معاكس لشعور أمارانتا. فكانت تستعيد ذكراها من غير سوء. كانت تستحضر صورة روبيكا، تلك الطفلة البائسة التي جيء بها إلى بيت آل بوينديا، وهي تحمل حقيبة فيها عظام أهلها، والتي انتصرت على الفعلة التي فعلتها وجعلتها لا تستحق أن تكون منتمية إلى شجرة العائلة.

وعزم أوريليانو الثاني على أن يأتوا بها لتعيش معهم في البيت. ولكن طيب نيته اصطدم برفض روبيكا العنيد. فقد كانت قد أوغلت في حياة الوحدة والانعزال. وتكيّفت لها سنين طويلة، تذوّقت خلالها كل ألوان الشقاء والعذاب. ورفضت أن تتنازل عن حياتها تلك، لقاء شيخوخة تقضيها معذبة بمشاعر الشفقة والإحسان.

في شهر شباط (فبراير)، عندما رحل أبناء العقيد أوريليانو بوينديا الستة عشر، وصليب الرماد على جباههم، حدثهم أوريليانو تريست (الحزين) عن أمر روبيكا، خلال صخب الاحتفالات. فانطلقوا إلى البيت فبدّلوا مظهره في أقل من نصف يوم : غيّروا الأبواب والنوافذ، ودهنوا الواجهة بألوان زاهية، وطلوا الجدران، وصبّوا الأرض بالإسمنت من جديد. ولكن روبيكا لم تسمح لهم بإصلاح المدخل، ولم تصل عتبة الدار. وتركتهم يرممون البيت بجهد لا يعرف الكلل. ثم حسبت ما بلغته النفقات، وأرسلت لهم، مع خادمتها العجوز أرجينيدا، حفنة من الدراهم، كانت قديمة بطل استعمالها منذ أيام الحرب، وكانت روبيكا تظن أنها ما زالت قيد التداول. وعندئذ اتضح الحد البعيد، الذي لا يصدّق، عن الانقطاع ما بينها وبين العالم. وبات جلياً أنه بات من المتعذر انتزاعها من عزلتها العنيدة ما دامت على قيد الحياة.

وفي الزيارة الثانية التي قام بها أبناء العقيد أوريليانو بوينديا إلى ماكوندو، بقي واحد آخر منهم، وهو أوريليانو سنتينو، للعمل مع أوريليانو الحزين . وقد كان هذا من أوائل الذين وصلوا إلى البيت من أجل العمّاد. وقد كانت أورسولا وأماراتنا تذكرانه جيداً، لأنه قد حطّم، خلال ساعات، كل الأشياء اللطيفة الناعمة التي صادفتها يداه. وقد هدّأ الزمن من شدّة اندفاعه، الذي رافق نموّه، فغدا الآن شاباً متوسط القامة، في وجهه ندوب الجدري. ولكن قدرة يديه الخارقة على الكسر والتحطيم كانت ما زالت على حالها. فقد كان، أحياناً، يحطّم عدداً من الأطباق حتى دون أن يمسّها. ولذلك فضّلت فيرناندا أن تشتري له طقماً من أطباق القصدير، قبل أن يجهز لها على ما بقي من أوانيها الصينية الثمينة. ولكن هذا الإجراء لم يحم صحاف المعادن القوية من أن تتقشّر بين يديه، أو تتثنى خلال وقت قصير.

ولكن أوريليانو سنتينو، إلى جانب هذه الطاقة فيه، والتي كانت تؤله ولا أمل في شفائه منها، كان، من جهة أخرى، دمث الخلق توحي شخصيته بالثقة . وكانت قدرته على العمل عظيمة . ففي خلال وقت قصير، استطاع أن يزيد إنتاج الجليد كمية فاقت حاجة السوق المحلية، ودفعت أوريليانو تريست إلى التفكير في توسيع عمله وإيصاله إلى قرى إقليم الماريجو (منطقة المستنقعات) جميعاً. وعندها عزم على اتخاذ خطوة هامة، ليس من أجل تحديث صناعته وحسب، بل من أجل ربط البلدة ببقية العالم أيضاً. فقال :

ـ يجب أن نوصل سكة الحديد إلى هنا.

وكانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها تلك الكلمة في ماكوندو. وعندما سمعت أورسولا، وأبصرت، المخطط الذي أعدّه أوريليانو تريست(الحزين) ، والذي كان وليد النماذج والخطط التي كان خوزيه

أركاديو بوينديا يرسمها ويوضح بها مشروعه للحرب الشمسية، عندما رأت أورسولا ذلك، ازداد شعورها، وتثبت اقتناعها بأن الزمن يسير في دائرة ، والتاريخ يعيد نفسه . فما كان أوريليانو الحزين (تريست) ليختلف عن جده إلاّ بأنه لا ينقطع عن الطعام والنوم، ولا يزعج أحداً بسورات غضبه. فقد كان، على العكس من ذلك ينظر إلى أغرب المشاريع كأنها احتمالات فورية، ويقدر بالحساب تكاليفها والزمن اللازم لها بطريقة عقلية، وكان يعمل على إيصالها إلى أهدافها دون المرور في مراحل يائسة

وإذا كان أوريليانو الثاني قد ورث عن جدّ أبيه شيئاً، في حين أنه لم يرث شيئاً آخر عن العقيد أوريليانو بوينديا، فقد كان ذلك عدم مبالاته المطلقة بالسخرية وعدم استفادته من دروس الإخفاق. ولذلك دفع المال اللازم لمدّ سكة الحديد واستقدام القطار إلى ماكوندو، باللامبالاة نفسها التي موّل بها مشروع أخيه، خوزيه أركاديو الثاني، الأخرق للملاحة. وبعد أن راجع أوريليانو الحزين (تريست) مفكرته ، غادر ماكوندو يوم الأربعاء التالي، مخططاً للعودة بعد انتهاء الأمطار.

وانقطعت أخباره، وناء أوريليانو سنتينو بأعباء العمل المتزايد. وبدأ يجرب صناعة الثلج بعصير الفاكهة بدل الماء. فاكتشف بهذه الطريقة، دون أن يعرف أو يقصد، المبادىء الأساسية لاختراع أنواع الشراب وعصير الفواكه. وكان في سبيله لتنويع إنتاج معمله، مفترضاً أنه صار ملكاً له وحده، لأن أخبار أخيه قد انقطعت تماماً. وقد انقضى فصل الشتاء وتبعه فصل الصيف.

وفي أوائل فصل الشتاء التالي ، كانت إحدى النساء تغسل الثياب على النهر، في وقت من أكثر ساعات النهار حرارة. فتركت ثيابها وراحت تعدو في الشوارع والطرقات مذعورة وفي حالة من الرعب شديدة، وهي تصرخ. ثم استطاعت أن توضح ما أخافها، فقالت :

ـ إنه آت. شيء مخيف كأنه مطبخ يجرّ وراءه قرية.

وفي تلك اللحظة، اهتزت البلدة كلها، عندما دوّى في الأفق صفير كان يتردّد صداه بشكل مخيف، ثم تلا ذلك لهاث متعب.

وكان أهل البلدة قد شاهدوا، في الأسابيع الماضية، مجموعات من العمال الذين كانوا يثبتون الخطوط الحديدية والعوارض الخشبية. ولكن أحداً لم يهتم لذلك الأمر، لأن الناس ظنوا أنه واحد من اختراعات الغجر العائدين بطبولهم ومزاميرهم وصخبها القديم، بعد أن فقدت أقاويلهم وأعمالهم قيمتها لفرط ما كرّروها على مدى مئة عام، وبعد أن فقدت طعمها رقصاتهم وأغانيهم من خصائص الإكسير الذي اخترعه عباقرة رحّالة قادمون من مدينة القدس.

ولكن، ما إن أفاق الأهلون من ذهولهم الذي أحدثه الصفير واللهاث، حتى اندفعوا زرافات إلى الشارع العام. فإذا بهم يشاهدون أوريليانو الحزين (تريست) يلوّح لهم بيده من القاطرة، ثم يرون، وهم مندهشون، القطار مجللاً بالورود، وقد وصل أخيراً، متأخراً ثمانية شهور عن الموعد المحدّد لوصوله. ذلك القطار الأصفر البريء، الذي كان لا بد له أن يحمل إلى ماكوندو الكثير من الغموض واليقين، ولحظات الخير والفرح ولحظات الشر والترح، والتغيرات الكثيرة، من الأرزاء ومشاعر الحنين.

(١٢)

طغت الاختراعات العظيمة الكثيرة على الحياة في ماكوندو، وأذهلت أهلها، فما يعلمون من أين ابتدأت دهشتهم. فكانوا يمضون الليل بطوله، يتأملون المصابيح الكهربائية الشاحبة، تغذيها مجموعة محركات كهربائية جلبها معه أوريليانو تريست (الحزين)، في رحلته الثانية في القطار. وقد مر وقت، واستُنفد جهد حتى اعتادوا صوت القطار: توم ـ توم، الذي كان يدهشهم بشكله وصوته وحركته. وأثارت سخطهم الصور المتحركة التي كان يعرضها برونو كريسبيد وقد أصبح تاجراً غنياً، في المسرح، الذي كانت له شبابيك تذاكر تشبه رأس الأسد. وكان مما يزعجهم أن أحد الأبطال قد مات ودفن في أحد الأفلام فذرفوا لعذابه وفراقه دموعاً سخية، ولكنه ما لبث أن ظهر في فيلم آخر حياً، وقد بدا في هيئة رجل عربي.

وما كان الجمهور الذي يدفع الواحد من أفراده سِنْتين، كي يقاسم الممثلين معاناتهم ومصاعبهم وأحزانهم، ليحتمل هذه السخرية التي لا مبرر لها، فحطم الناس المقاعد جميعاً، واضطرّ رئيس البلدية، عند إلحاح الدون برونو كريسبي، لأن يعلن على الملأ أن السينما ليست سوى آلة أوهام لا تستأهل الانفجار العاطفي من الجمهور المشاهد. وبعد ذلك

البيان المخيب للآمال، أدرك الناس أنهم كانوا ضحية حيلة غجرية كبيرة جديدة، فقرروا ألا تطأ أقدامهم أرض السينما بعد ذلك. فقد كان لديهم من الأحزان ما يكفيهم، وليس بهم حاجة ليبكوا آلام الآخرين الوهمية.

وقد حدث ما يشبه ذلك مع الحاكيات (الفونوغرافات) ذات الأسطوانات، التي جاءت بها السيدات الفرنسيات لتحل محل الأرغن المجري، والتي أضرّت، إلى وقت، ضرراً بالغاً بالموسيقيين. ففي البداية، أدّى حب الاستطلاع إلى الزيادة في أعداد روّاد الحيّ الخاص، حتى قيل إن بعض السيدات المحتشمات كنّ يتنكرن بثياب عامة الشعب، كي يذهبن لمشاهدة الحاكي عن كثب. ولكن الناس أمعنوا في فحصه حتى توصلوا إلى نتيجة أنه ليس طاحوناً سحرية، كما كان يظن الكثيرون، وكما كانت السيدات الفرنسيات يزعمن، بل هو آلة عادية لا يمكن مقارنتها بجوقة الموسيقيين الحيّة الإنسانية، المفعمة بالحقيقة اليومية. وانجلى ذلك الوهم، وتكشفت أبعاده، حتى إذا انتشر استعمال الحاكي بين الناس، ولم يعد يخلو منه بيت، صار لا يعتبر واسطة لتسلية الكبار، بل أداة يلهو بها الصغار فكاً وتركيباً.

أما الهاتف، من جهة أخرى، فلم يكن أمره كذلك. فعندما سنحت الفرصة لأحد سكان البلدة لتفحصه والتأكد من حقيقته الملموسة في محطة سكة الحديد، اعتبره الناس، لوجود يد له، تطبيقاً لمبدأ الحاكي. ولكنهم مع ذلك عجبوا له جميعاً، حتى أقلهم إيماناً.

كان أهل ماكوندو كأن الله قد شاء أن يمتحن قدرتهم على الدهشة والاستغراب، فجعلهم في حال صاعدة هابطة : بين فرح وترح، ويقين وشك، وكشف ووهم، حتى لم يكونوا يدرون ما قدر العلم الحقيقي في ما يرون، ولا أين يبدأ الواقع أو ينتهي. فقد التقت الحقائق بالأوهام، في اختلاط عجيب غريب، حتى إن شبح خوزيه أركاديو بوينديا قد عيل

صبره، ووجد نفسه مضطراً للسير، جيئة وذهاباً، يغدو في البيت في رابعة النهار.

ومنذ أن دُشّن الخط الحديدي رسمياً، وصار يصل بانتظام، في الساعة الحادية عشرة من كل يوم أربعاء، وأقيم له مكان من خشب يبيت فيه، فكان هو المحطة والمكتب وغرفة الهاتف وشباك بيع التذاكر، امتلأت ماكوندو بالناس، من الرجال والنساء، الذين كانوا في ظاهرهم لا يختلفون، من حيث السلوك، عن الناس العاديين. ولكنهم كانوا ذوي هيئات وأشكال تشبه العاملين في السيرك. فقد كان أولئك التجار الجوّالون المهرجون يعرضون، برشاقة أساليبهم، بضائعهم من القدور البخارية الصافرة (تحدث صفيراً) إلى نظام الحمية الذي يطمئن إلى تخليص النفس في اليوم السابع. ولكنهم لم يفيدوا كثيراً من ماكوندو، البلدة التي كوتها تجاربها مع الغجر، ولو أنهم كانوا يجنون أرباحاً طائلة من بسطاء الناس، ومن أولئك الذين كانوا يتظاهرون بالقناعة مللاً وسأماً.

وفي يوم من أيام الأربعاء، الذي لا يختلف عن سواه، وصل إلى ماكوندو السيد هيربرت الباسم السمين، وتناول طعام الغداء في بيت آل بوينديا. وكان من أولئك الثرثارين المسرحيين، الذين يرتدون بناطيل ركوب الخيل، ضيقة السيقان، والجوارب الطويلة، وقبعات الفلين، ويضعون على عيونهم نظارات ذات إطار حديدي، تبدو عيونهم من خلفها زمردية، ولهم بشرة كبشرة ديك نحيل.

ولم يلاحظه أحد على مائدة الطعام حتى فرغوا من أكل أول قنو من الموز. وكان أوريليانو الثاني هو الذي صادفه، حين كان يحتج، بلغة إسبانية ركيكة، في فندق جاكوب، لأنه لم يجد فيه مكاناً له. فدعاه إلى البيت، كما كان يفعل دائماً مع الكثيرين من الغرباء، وكان هذا يتاجر

بالمناطيد المقيدة، وقد قادته تجارته إلى بلدان كثيرة، حتى طاف حول نصف العالم. وجنى أرباحاً ممتازة. ولكنه لم يفلح في إقناع أحد من أهل ماكوندو بالصعود إلى الفضاء، لأن الناس وجدوا ذلك الاختراع رجعياً ومتأخراً، بالقياس إلى بساط الريح الغجري الذي عرفوه وجرّبوه. وكان يريد الرحيل في القطار التالي.

وعندما وضعوا على المائدة قنو الموز المنقّط، وقد كانوا يعلقونه أحياناً في غرفة الطعام ساعة الغداء، تناول أول موزة دون حماسة شديدة. ولكنه ما لبث أن تابع أكل الموز، بينما كان يتكلم، وكان يأكل متلذذاً، فيتذوق ويمضغ، في ذهول المفكر الحكيم أكثر من استمتاع الرجل الأكول. ولما انتهى قنو الموز الأول. رجاهم أن يأتوا بواحد آخر. وعندها أخرج من علبة أدواته، التي لم تكن تفارقه، محفظة تحوي أداة بصرية. وفحص موزة باهتمام ودقة وتأنٍّ، كأنه تاجر ماس. ثم قطع الموزة بمبضع خاص، وبدأ يزن كل قطعة منها بميزان حساس، ويحسب قطرها بمكيال صانع السلاح. وأخرج من العلبة مجموعة من الأدوات قاس بها حرارة الجو، ودرجة رطوبته، وكثافة الضوء. فأذهل الحاضرين بطقوسه تلك، فما استطاع أحد أن يأكل كما يشتهي. وكان الجميع ينتظرون أن يتكلم السيد هيربرت فينطق بالحكمة. ولكنه لم ينبس ببنت شفة، ولم يفه بحرف تعبيراً عما كان يدور في ذهنه، فلم يدر أحد ماذا كانت مقاصده.

وفي الأيام التي تلت ذلك، شاهده الناس يصطاد الفراش في حقول القرية بشبكة وسلة صغيرتين. وفي يوم الأربعاء التالي، وصلت إلى البلدة جماعة من المهندسين الزراعيين، ومهندسي الطاقة المائية والطبوغرافيا والمساحين. فأمضوا أسابيع طويلة، وهم يدرسون المنطقة التي كان يجوبها السيد هيربرت وهو يصطاد الفراش. ثم وصل السيد جاك براون في عربة مقطورة إلى آخر القطار الأصفر، مطلية بالفضة،

مخملية المقاعد، سقفها من الزجاج الأزرق. وقد وصل في هذه العربة كذلك فريق من المحامين الذين كانوا يرتدون البزات السوداء، يحيطون بالسيد براون وبين يديه، تماماً كما كانوا يفعلون مع العقيد أوريليانو بوينديا، حين كانوا يتبعون موكب تنقلاته. وقد دفع المشهد الناس إلى الظن بأن أولئك المهندسين الزراعيين، ومهندسي الطاقة المائية، والطبوغرافيين والمسّاحين، بل السيد هيربرت نفسه، بمناطيده المقيدة وفراشاته الملوّنة، حتى السيد براون بمتحفه السيّار ورعاته الألمان الشرهين، كل ذلك إنما كان ذا صلة بالحرب.

ولم يطل الشك بأهل ماكوندو، بل أنهم لم يكادوا يبدأون التساؤل حول ما سوف يحدث لبلدتهم، حتى تحولت البلدة إلى ما يشبه مخيّماً من البيوت الخشبية الصغيرة المغطاة بالتوتياء، يقيم فيها أجانب، ما انفكوا يتوافدون جماعات في القطار، الذي لم تكن تتسع لهم مقاعده فيملؤون أماكن الوقوف وسطوح العربات. ثم جلب الأميركيون زوجاتهم البدينات بثياب الموسلين وقبعات الشفوف الكبيرة. فبنوا لهم قرية منفصلة إلى الجانب الثاني من سكة الحديد، وشقوا فيها شوارع غرسوا على جوانبها أشجار النخيل. وكانت بيوت القرية ذات نوافذ لها ستائر، وأمام كل منها باحة فيها طاولة بيضاء. وقد علقت في سقوف البيوت مراوح، وامتدت أمامها مروج فسيحة تسرح فيها الطواويس وطيور السمّن.

كان ذلك القسم من المباني مسيّجاً بشريط معدني شائك مكهرب. فتراه، في كل صباح من الأصبحة الباردة في فصل الصيف، وقد اسودّ لكثرة ما علق به من طيور السنونو التي احترقت حيّة عليه.
ولم يكن أحد ليعلم ما الذي جاء بهؤلاء الناس. فقد قلبوا المنطقة رأساً على عقب، وأحدثوا صخباً لا يدانيه حتى صخب الغجر. ولو أن صخب الغجر

وضجتهم كانا عابرين، وضجة هؤلاء دائمة لا يعرف مداها أحد.

كانت لديهم أدوات ووسائل كانت من قبل من اختصاص العناية الإلهية: فقد عدلّوا نظام المطر، وعجّلوا دورات مواسم الحصاد، وحوّلوا النهر عن مجراه القديم. فنقلوه بحجارته البيضاء ومجاريه الجليدية إلى الناحية الأخرى من القرية خلف المقبرة، وشيدوا، في تلك الفترة قلعة من الإسمنت المسلح فوق ضريح خوزيه أركاديو، الذي بهت لون حجارته، كي لا تفسد المياه رائحة البارود المنبعثة من جثته. وحوّلوا شارع السيدات الفرنسيات اللعوبات، من أجل الغرباء القادمين بلا حب، إلى قرية أكبر من الأولى. وفي يوم أربعاء «مجيد» جاؤوا إلى القرية بقافلة، تفوق الخيال، من البغايا الغريبات، والإناث البابليات، اللاتي اتقنّ كل فنون التاريخ القديم وطرائقه، وامتلكن كل أنواع المراهم والوسائل والأدوات التي تستثير العنين العاجز، وتشجّع الخجول المتردد، وتشبع النهم، وتحفز الحيي المتواضع، وتعلم الفاشل المعيد، وتصحح عوج المتوحدين.

وامتلأ شارع الأتراك بمخازن الأفاويه[1] والتوابل المثيرة التي كانت تشع مضيئة طوال الليل، عارضة بضائعها المستوردة من الخارج، حالة بذلك محلّ الدكاكين السابقة ذات الألوان الزاهية. وغصّ ليل السبت بصخب جماهير المغامرين الذين يتدافعون بين طاولات القمار والميسر، وأماكن الرماية والتسديد والتصويب، إلى الشارع الصغير حيث يستطلع المستقبل وتفسر الأحلام، وبين الطاولات المزدحمة بالمشويات والمقليات وصنوف الشراب من الخمور، التي تراها في الصباح وقد انقلب بعضها فوق بعض، وقد تمددت بينها أجسام لبشر، بعضهم سكارى ينتشون بلذائذهم مستمتعين، وبعضهم فضوليون سقطوا ضحية رصاصة طائشة أو لكمة تائهة أو طعنة سكين ضلت طريقها، أو ضربة زجاجة مشروب إثر

أفاويه : جمع فوه ، وهو نوع من البهارات

مشاجرة بين طرفين.

كان ذلك غزواً رهيباً فعلاً. حتى إن الناس لم يعودوا، في البدء، قادرين على الخروج من بيوتهم ليسيروا في الطرقات، لأن قطع الأثاث والصناديق كانت تسد تلك الطرقات، وبسبب الغدو والرواح والضجة في نقل الأثاث على العجلات، وعمل النجارة في بيوت أولئك الذين كانوا ينشئون بيوتهم في أية بقعة خالية دون عناء الاستئذان من أحد، وبسبب مناظر الأزواج من الفتيان والفتيات الخجلة، الذين كانوا يعلقون أراجيحهم بين أشجار اللوز، فيتضاجعون ويمارسون الحب خلف ستائرها الشفافة أمام جميع الناس جهاراً، وفي رابعة النهار.

كان الملاذ الهادىء الوحيد هو تلك الزاوية التي أنشأها الزنوج الهنود الغربيون على هيئة شارع هامشيّ صغير، بيوته من الخشب المقامة على أعمدة. وكان هؤلاء يجلسون أمام بيوتهم تلك في أصائل الأيام، ليغنوا أغانيهم ذات الأنغام الحزينة، بلغتهم الغريبة الشبيهة بزقزقة العصافير.

ولقد حدث التبدل والتغير في البلدة خلال فترة قياسية من حيث القصر. فقد تمّ كل ذلك خلال ثمانية شهور بعد زيارة السيد هيربرت. فلم يعد أهالي ماكوندو القدامى بقادرين على معرفة بلدتهم إلا بصعوبة. حتى قال العقيد أوريليانو بوينديا في تلك الفترة:

ـ انظروا البلاء الذي جلبناه لأنفسنا، لمجرد أننا دعونا أميركياً لأكل الموز عندنا.

أما أوريليانو الثاني فكان يكاد يطير من السعادة التي كانت تغمره أمام ذلك الحشد الهائل من الغرباء. فقد ازدحم البيت فجأة بالضيوف غير المعروفين، من المخمورين العالميين الذين لا يقهرون. فأضاف إلى البيت غرفاً جديدة بناها في باحة الدار، ووسّع قاعة الطعام، واستبدل بطاولة

الطعام القديمة طاولة جديدة تتسع لستة عشر شخصاً . وبدّل الصحاف القديمة . وجدّد الصحاف والأطباق وأدوات الطعام الأخرى ، وجعل يقدم الطعام على دفعات . واضطرت فيرناندا للسكوت على مضض ، بينما كانت تستقبل ، كما يليق بالملوك ، أولئك الضيوف الماجنين الذين يتصفون بكل صنوف العهر والعربدة . ينشرون أوحال أحذيتهم في الشرفة ، ويبولون في البستان ، ويفرشون حصير الخيزران المجدول في أي مكان يخطر لهم لقضاء القيلولة . ويتحدثون كيفما اتفق ، دون أن يراعوا حساسية السيدات ، كما يفعل السادة المهذبون .

وأغاظ أمارانتا غزو هؤلاء الرعاع، فعاودت الأكل في المطبخ على عادتها في الزمن الماضي. وأيقن العقيد أوريليانو بوينديا أن معظم الذين كانوا يفدون لتحيته في المشغل، ما كانوا يفعلون ذلك عن محبة واحترام، بل مدفوعين بحب الاستطلاع، لعلهم يشاهدون أثراً تاريخياً، أو حيواناً محنطاً في متحف. ففضل أن يحبس نفسه في مشغله، وأن يقفل بابه بالعارضة، فلا يراه أحد، من بعد، إلاّ في فرص نادرة، عندما يخرج للجلوس عند الباب.

أما أورسولا، وقد باتت تجرّ قدميها جراً، وتستند إلى الحائط مستعينة ومهتدية به، فقد كانت تشعر بفرح طفولي عندما تحين ساعة وصول القطار. فكانت تأمر الطباخات الأربع قائلة :

ـ علينا أن نعدّ بعض اللحم والسمك.

فيسارعن لإعداد كل شيء بإشراف سانتا صوفيا التقية إشرافاً صارماً كي يكون كل شيء جاهزاً في الوقت المناسب. وتصر أورسولا قائلة :

ـ يجب أن نطهو كل شيء، لأننا لا نعرف ماذا يحب أن يأكل هؤلاء الغرباء.

وكان القطار يصل في أشد ساعات النهار حرارة، حتى إذا حان وقت

الغداء علت الضجة، وسادت الغوغاء، فاهتز البيت لشدة الصخب. وتدافع الضيوف الذين لا يعرفون مضيفهم، والعرق يتصبب منهم، وهم يتزاحمون كالقطيع، يدافع كل منهم كي يحتل أفضل مكان له على المائدة. فتصطدم الطباخات بعضهن ببعض، وهن يحملن قدور الحساء الكبيرة، والصحاف الملأى بمختلف أنواع الطعام، وأواني السلطة، وأوعية الأرز، وبراميل عصير الليمون. وتسود الفوضى، حتى تقوم قيامة فيرناندا التي يثيرها الشك في أنّ بعضهم كانوا يأكلون مرتين. وكثيراً ما كانت على وشك أن تصل حد الانفجار، فتصب جام غضبها بسيل من شتائم السوقة على ضيف يسألها بارتباك عن مقدار حسابه.

ومضى عام على زيارة السيد هيربرت، ولم يعرف الناس سوى شيء واحد، وهو أن الغرباء كانوا عازمين على زراعة الموز في تلك الأرض المسحورة التي جابها خوزيه أركاديو بوينديا ورجاله، عندما كانوا يبحثون عن طريق للاختراعات العظيمة.

وجاء اثنان آخران من أبناء العقيد أوريليانو بوينديا، وعلى جبين كل منهما صليب الرماد. وقد جذبتهما إلى هناك تلك الطفرة البركانية. وقد علّلا قرارهما بالمجيء بجملة تلخص أسباب مجيء كل القادمين. فقالا :

ـ جئنا لأن الناس جميعاً يأتون.

كانت ريميديوس الجميلة هي الوحيدة التي كانت لديها مناعة نجّتها من وباء الموز. فقد نشأت هادئة، وتجلى شبابها الرائع، وظلت بعيدة عن كل الشكليات، كارهة للخبث عازفة عن ظنون السوء، سعيدة بعالم الحقائق البسيطة الخاص بها. ولم تكن تدري لماذا تعقّد النساء حياتهن بأنواع من الصدارات والخرايط، فخاطت لنفسها جلباباً واسعاً من نسيج القنّب، كانت تلبسه بأن تنزله من رأسها. وهكذا حلت مشكلة اللباس، فظلت تشعر بأنها عارية، لأن أفضل حلة ترتديها المرأة، في نظرها، في البيت

www.liilas.com/vb3

هي أن تبقى عارية، وأصرّ عليها أهلها أن تقص شعرها، الذي كان ينساب على جسمها كالشلال، فيغطيها حتى أخمص قدميها، وأن تعقصه بالدبابيس، أو أن تجدله وتربطه بشرائط قرمزية. فكان أن حلقت شعرها بالموسى، بكل بساطة، وصنعت منه شعراً مستعاراً للقديسين. وكان الغريب في موهبتها وقدرتها على تبسيط الأمور أنها كانت كلما أوغلت في البعد عن التقاليد، مستجيبة لعفويتها في حب ما هو عملي، ازداد جمالها إشراقاً، وازداد تأثيره في الآخرين وتسبيب الاضطراب لهم، وأثار سلوكها الرجال.

وقد تذكرت أورسولا، عندما كان أبناء العقيد أوريليانو بويندیا في ماكوندو أول مرة، أن الدم الذي يجري في عروقهم هو نفسه الدم الذي يجري في عروق حفيدة ابنها. وعاودها خوف ارتاعت له من جديد، بعد أن ظنت أنها نسيته، فأنذرتها قائلة :

ـ افتحي عينيك جيداً. إذا تزوجت أيّ واحد من هؤلاء جاء أبناؤك بأذناب خنازير.

ولكن الفتاة لم تعر قولها أي اهتمام. فلبست ثياب الرجال، وتدحرجت على الرمال، وهي تحاول تسلق العمود المشحّم. وكادت تثير مأساة بين أبناء عمها الذين فقدوا صوابهم أمام مشهدها الذي لم يكن له مثيل. ولذلك لم يكن أحد منهم لينام في البيت إذا جاء البلدة. وأصرّت أورسولا على الأربعة الذين استقروا بينهم، أن يقيموا في غرف مستأجرة. ولو أن ريميديوس الجميلة علمت بتلك الاحتياطات لماتت ضحكاً منها، فحتى اللحظة الأخيرة من حياتها في هذا العالم، لم تكن تدري أن قدرها، الذي لا محيص عنه، هو في أن تكون امرأة من نار لها في كل يوم ضحية.

وكانت كلما خالفت أوامر أورسولا، فظهرت في قاعة الطعام، أثارت

بين الغرباء ذعراً واضطراباً. فقد كان واضحاً تماماً أنها كانت عارية كل العري تحت جلبابها الخشن. وما كان أحد ليدرك إلاّ أن جمجمتها الحليقة كانت تحدّياً، وأن الجسارة التي كانت تحسر بها ثوبها عن فخذيها، كي تخفف عنها عناء الحر، إلاّ إثارة إجرامية. وكذلك كان أمر تلذذها بمص أصابعها بعد أن تأكل بيديها. أما الذي لم يعرفه أعضاء العائلة، ولكن الغرباء أدركوه سريعاً، فهو أن ريميديوس الجميلة كانت تنفث نفساً يلهب القلب. كل نفثة منه تعذب البشر. وتظل عالقة ظاهرة حتى بعد ساعات من مرورها.

وقد أكد بعض الذين خبروا اضطرابات الحب، واعترف العالم كله لهم بخبرتهم فيه ، أنهم لم يعرفوا قط في حياتهم ، رعدة شبيهة بتلك التي تنتابهم من رائحة ريميديوس الجميلة الطبيعية. فقد كان سهلاً تحديد المكان الذي حلت فيه، وكم أقامت فيه، ومتى غادرته، أكان في الشرفة ذات أزهار البيجونيا، أم في الصالة، أم في أي مكان آخر من البيت. كان أثرها واضحاً يختلف عن أثر أي إنسان آخر. ولكنّ أحداً في البيت ذات أزهار البيجونيا ، أم في الصالة ، أم في أي مكان آخر من البيت . العادية منذ أمد بعيد، بينما كان سهلاً على الغرباء تمييزه. ولذلك كان الغرباء عن البيت وحدهم يدركون كيف مات قائد الحرس الشاب من الحب، ولماذا استسلم لليأس ذلك الفارس الذي قدم من بلاد بعيدة.

كانت ريميديوس الجميلة تجهل الفلك الذي تدور في مساره، وتجهل البؤس المقيم الذي يصيب من تمرّ بهم. تعامل الرجال بلا خبث ولكنها في النهاية تذهب ببقايا عقولهم بلطفها الساذج . وعندما أفلحت أورسولا بإقناعها بضرورة تناول طعامها في المطبخ مع أمارانتا، كي تجنب الغرباء رؤيتها، ارتاحت لأنها تخلصت من الرضوخ لنظام المائدة. ولم تكن هي، في الواقع، تهتم بأن تأكل هنا أو هناك، أو في ساعات محدّدة،

بل أن تتصرف وفق نزوات شهيتها. فقد كانت أحياناً تستيقظ باكراً، فتتناول فطورها في الساعة الثالثة صباحاً، ثم تنام النهار بطوله، وتقضي شهوراً تعيش حسب توقيت يخضع لأهوائها، حتى تواجهها حادثة مفاجئة تعيدها إلى النظام المألوف. وعندما تتحسن الظروف، كانت تستيقظ في الساعة الحادية عشرة صباحاً، ثم تحبس نفسها حتى الساعة الثانية بعد الظهر، وهي عارية تماماً في غرفة الاستحمام، تقتل العقارب، بينما هي تخرج من خمولها العميق ونومها الطويل، وعندئذ ترشّ جِسمها بماء الخزان بوساطة قرعة تستخدم لهذه الغاية، وكانت تمضي وقتاً طويلاً في هذه العملية. وتنجزها بحرص دقيق، تقف فيها وقفات تأمل، حتى ليظن من لا يعرفها جيداً أنها إنما كانت تكرسها لعبادة جسدها الجدير بذلك. أما هي فقد كانت الطقوس التي تؤديها وحدها بعيدة عن كل شهوة. ولم تكن سوى وسيلة لإزجاء الوقت حتى تحس بالجوع.

وذات يوم، وبينما كانت ريميديوس تستحم، انتزع أحد الغرباء قرميدة من السقف، ووقف مبهور النفس أمام مشهد عريها العجيب. ولاحظت عينيه المشدوهتين عبر القرميد المنزوع، فكان ردّ فعلها خوفاً عليه لا خجلاً منه. وصرخت في وجهه قائلة :

ـ حذار أن تسقط.

فتمتم الغريب قائلاً :

ـ لا أريد إلاّ أن أراك.

وأجابت :

ـ آه، حسنا، ولكن انتبه، فهذا القرميد تالف.

كان وجه الرجل الغريب يعبر عن دهشة وألم، وبدأ يكافح ويعاني من إحساساته وغرائزه البدائية، كي لا يضمحل أمام عينيه السراب. وظنت ريميديوس الجميلة أنه كان يعاني من الفزع، خشية أن يتحطم به

القرميد، فاستحمت أسرع من عادتها، كي تجنب الرجل البقاء في مواجهة الخطر. وروت له، وهي ترش ماء الخزان على جسدها، كيف أنها تعاني مشكلة من حالة السقف، بسبب أوراق الشجر التي تلفت من المطر، فنشأ عنها أن راحت العقارب تعيث في الحمّام. وظنّ الرجل الغريب أن ثرثرتها تلك كانت وسيلة لكتم عواطفها. فلم يستطع مقاومة الإغراء، فتقدم خطوة في مغامرته، بينما كانت ريميديوس تفرك جسمها بالصابون. وتمتم قائلاً لها :

ـ دعيني أفركك بالصابون.

فقالت له :

ـ شكراً للطفك، ولكنّ يديّ تكفيان تماماً.

وتوسّل لها الغريب :

ـ حتى ولو ظهرك فقط.

فأجابت :

ـ ذلك مضيعة للوقت، وعمل لا لزوم له. فلا أحد يفرك ظهره بالصابون.

وعندما أخذت تنشف جسدها، اغرورقت عينا الغريب بالدموع، وتوسل إليها أن تقبل الزواج منه. فأجابته بصراحة أنها لن تتزوج أبداً من رجل ساذج بسيط، يقضي نحو ساعة من الزمن، ويبقى حتى دون غداء، لمجرد أن يرى امرأة تستحم. وأخيراً، وعندما لبست جلبابها، أيقن الغريب مما كانت تذهب إليه ظنون الناس جميعاً، إذ اكتشف أنها لا تلبس شيئاً تحت الجلباب. وأحس أنه قد اكتوى إلى الأبد بسرّ ذلك الحديد الأبيض الساخن. فانتزع قرميدتين أخريين كي ينزلق إلى داخل الحمام. فأنذرته قائلة بخوف :

- إنه عال جداً، وسوف تقتل نفسك.

وتحطمت قطع القرميد المتهالك، وانهارت محدثة انفجاراً وقعقعة مخيفة، ولم يتسع الوقت للرجل إلاّ لأن يصيح صيحة رعب، قبل أن تتحطم جمجمته، ويموت فوراً، على الأرض الإسمنتية.

وسمع الغرباء في قاعة الطعام صوت الحطام في وقته، فهرعوا إلى المكان، ورفعوا الجثة. فتبيّنوا على جلدها رائحة ريميديوس الجميلة الخانقة. وقد انسربت الرائحة إلى أجزاء الجسد كلها، حتى إن الدم لم يتدفق من الجمجمة المحطمة، وتدفق بدلاً منه سائل كأنه زيت العنبر ضمخه عطر خفيّ. وأدرك الناس أنه رائحة ريميديوس الجميلة تظل تعذب البشر بعد الموت، حتى تحيل عظامهم رفاتاً. ولم يتبين أحد أية صلة بين هذه الحادثة الرهيبة وقصة الرجلين اللذين سبق أن ماتا من أجل ريميديوس الجميلة. ولم يصدق الغرباء، ولا القدماء من أهل ماكوندو، الأسطورة القائلة بأن ما يفوح من ريميديوس الجميلة إنما هو أنفاس موت وليس نفحات حب، إلاّ بعد ضحية أخرى. ولقد تأكدوا من هذا الأمر حين ذهبت ريميديوس الجميلة ذات عصر، بعد شهور من ذلك، مع جماعة من صويحباتها، لزيارة المزروعات الجديدة. فقد اكتسب سكان ماكوندو عادة حديثة، هي التسلية بالنزهات على الدروب الطويلة بين أشجار الموز. وكان الصمت على الطرق كأنما يجيء من عالم آخر، وهو صمت أثقل من أن يتحرك فيه الصوت. فقد كان المرء، أحياناً، لا يسمع كلمة قيلت على بعد أمتار، وفي أحيان أخرى يدرك الكلمات التي تلفظ عند الطرف الآخر من الغابة.

وكانت فتيات ماكوندو يجدن المتعة في هذه التسلية، فيتضاحكن، ويجفلن، ويخفن، ويتندّرن، حتى إذا حلّ المساء، وهن يتحدثن عن نزهتهن وكأنها خبرة تمت في الأحلام. وقد كثر حديث الناس عن ذلك

الصمت وأهمية تلك النزهة، فعزّ على أورسولا أن تحرم ريميديوس الجميلة من تلك التسلية. فسمحت لها بالذهاب، ذات عصر. ولكنها اشترطت عليها أن تلبس قبعة وثياباً محتشمة. وفي اللحظة التي أوغلت فيها الفتيات في الغابة، عبق هواؤها برائحة الموت. وفجأة أحس الرجال، الذين كانوا يعملون بين صفوف الأشجار، أنهم قد وقعوا تحت سيطرة سحر عجيب. فهناك خطر غريب يتهددهم. واستجاب كثيرون منهم لرغبة جامحة في البكاء. وقد لجأت ريميديوس الجميلة وصويحباتها إلى بيت قريب حين هاجمتهم عصابة من الذكور المتوحشين. ثم ما لبث أن أنقذهنّ الأربعة الأوريليانو، الذين كانت صلبان الرماد على جباههم توحي بالاحترام المقدس، كأنما هي شارة معنى، أو دليل على العصمة من الأذى. ولم تحدث ريميديوس الجميلة أحداً عن أنّ واحداً من أولئك الرجال المهاجمين قد استغلّ الفوضى الحاصلة، فتمكن من مهاجمتها والقبض على بطنها بيد أقرب ما تكون إلى مخلب نسر يتعلق بحافة علي شفير هاوية. وقد واجهت المهاجم بعفوية، ولمحته، في دهشتها، بما يشبه الومضة، وتبينت نظرته الحزينة، فثبتت صورته في قلبها المشفق كجمر ملتهب. وقد راح ذلك الرجل يتفاخر، في تلك الليلة، في شارع الأتراك، وهو يتحدث عن جرأته متبجحاً، ويقدّر أن سعده قريب. ولكنه ما لبث بعد ذلك إلاّ دقائق، حتى رفسه حصان، فحطم صدره بحافره. وقد شهد نزعه الأخير حشد من الغرباء في منتصف الشارع، وهو يغرق في ما يقيء من دمائه.

ومنذئذ، باتت الفرضية القائلة بأنّ في ريميديوس الجميلة قوة مميتة تعتمد على أربع وقائع لا يرقى إليها الشك. وكان بعض البارعين في الحديث يتندرون بالقول إن ليلة حب مع امرأة بمثل جمالها تستأهل أن يفارق المرء بعدها الحياة. ولكن الواقع أنّ أحداً لم يبذل أيّ جهد

للحصول على مثل تلك الليلة. وربما كان يكفي للحصول عليها، أو حتى لتحاشي خطرها، الشعور بعاطفة بدائية بسيطة هي الحب. ولكنه الشيء الوحيد الذي لم يفكر فيه أحد. وقد أقلعت أورسولا عن العناية بها. وكانت، قبل أن تيأس من فكرة امتلاكها وردها إلى الحياة الطبيعية الصائبة، تحثها على الاهتمام بمقومات الحياة العائلية. فكانت تقول لها دون إفصاح تام :

ـ إنّ الرجال يطلبون أكثر مما تظنين. فالمرأة يجب أن تطبخ دائماً، وأن تكنس بلا انقطاع. والمرأة تعاني من أجل أمور صغيرة تافهة، أكثر مما تظنين. وكانت تغالط نفسها بمحاولة تدريبها على الحياة العائلية والسعادة العائلية. فقد كانت مقتنعة بأن الرجل، أي رجل في هذا العالم، بعد أن تشبع عاطفته، لن يتحمل منها يوماً واحداً إهمالها الذي لا يوصف. وعندما ولد خوزيه أركاديو الأخير. وعزمت عزماً صادقاً على أن تجعل منه بابا، تحوّل اهتمامها عن ابنة حفيدها، ولم تعد تعنى بأمرها. تركتها لمصيرها، وهي واثقة بأن يوماً سيحل تتحقق فيه المعجزة. وما دام العالم حافلاً بكل شيء، فهو لن يضيق برجل ما، بليد إلى درجة تجعله ملائماً لزواجها منه. وقبل أورسولا، كانت أمارانتا قد توقفت عن محاولة جعلها امرأة نافعة نوعاً ما. فقد توصلت، هي الأخرى، ببساطة إلى استنتاج أن حفيدة أخيها بلهاء، منذ ذلك الوقت الذي كانتا تقضيانه معاً في مشغل الخياطة، وكانت حفيدة أخيها تدير يد آلة الخياطة دون أن يبدو عليها أنها تكترث بما تفعل . فكانت تقول لها ، وهي تعجب لعدم إحساسها بما يقوله لها الرجال من كلام :

ـ يبدو أننا سنضطر لوضعك في اليانصيب.

وفيما بعد، ولما قررت أورسولا أن ترسل ريميديوس الجميلة إلى الكنيسة، وقد غطت وجهها بخمار، ظنت أمارانتا أن مثل هذا الأمر قد

يزيد في ما يحيط بها من سر، ويثير الرجال، فلا تعدم منهم من يثور فيه حب الإطلاع، عله يبحث صابراً عن نقطة ضعف في قلبها. ولكنها، عندما شهدت الطريقة البلهاء التي عاملت بها ذلك الخاطب، وكان أفضل وأحلى من أمير في جوانب كثيرة، وطّنت نفسها على الاعتقاد بأن لا أمل فيها على الإطلاق.

أما فيرناندا فلم تحاول قط أن تفهمها. وعندما رأت ريميديوس الجميلة في زي ملكة، في يوم المهرجان الدامي، قالت عنها إنها مخلوقة رائعة. ولكنها، عندما رأتها تأكل بأصابعها، ولا تستطيع أن تتلفظ بجواب إلاّ أن يكون غاية في السذاجة وبساطة العقل، لم تأسف إلا على شيء واحد، وهو أن البلهاء في العائلة يعيشون طويلاً.

وكان العقيد أوريليانو بويندا يعتقد، وقد استمر في اعتقاده، بأن ريميديوس الجميلة كانت أذكى من عرف في حياته، وأنها كانت ما تفتأ تقيم الدليل إثر الدليل على ذلك بقدرتها المذهلة وهي تسخر من الآخرين.

وعلى الرغم من هذا الرأي، تركوها للعناية الإلهية.

وظلت ريميديوس الجميلة تضل في صحراء الوحدة، لا تتألم من أي شقاء، تتفتح وتنضج في أحلامها دون كوابيس، وفي حماماتها التي لا تنقطع، وفي وجبات طعامها التي تتناولها في ما اتفق من ساعات اليوم، وفي صمتها الطويل العميق دون أن تجتر الذكريات. حتى أصيل ذلك اليوم من شهر آذار (مارس)، الذي قررت فيه فيرناندا أن تذهب إلى البستان، كي تطوي غسيلها المصنوع من نسيج (البرابان)، وطلبت من نساء البيت مساعدتها في ذلك. وما إن بدأن العمل حتى لاحظت أمارانتا على وجه ريميديوس الجميلة صفرة كثيفة وشحوباً شديداً. فسألتها قائلة :

ـ ألست على ما يرام؟

وابتسمت ريميديوس الجميلة ابتسامة حزينة، وهي تمسك بالطرف الآخر من الملاءة، وقالت :

ـ على العكس تماماً. فلم أشعر قط بأنني أحسن مني الآن.

وعند هذه الكلمات، شعرت فيرناندا بنسمة ناعمة مضيئة تنتزع الملاءات من يديها، وتفرشها على اتساعها، وشعرت أمارانتا بحفيف خفيّ في طيات شلحتها، وأحست بالحاجة للتعلق بالملاءة كي لا تسقط، في اللحظة التي بدأت فيها ريميديوس الجميلة ترتفع في الجو. كانت أورسولا، وهي التي شارفت على العمى، الوحيدة التي حافظت على هدوئها وحضور ذهنها، لتدرك طبيعة تلك الريح الحازمة التي لا يوقفها شيء، فتركت الملاءات وهي تلوح بتحية الوداع بين خفقان الملاءات التي راحت ترتفع معها، متخلية عن بيئة الخنافس، عابرة طبقات الأثير، حيث يتوقف الزمن فلا تعود الساعة عندها الرابعة بعد الظهر. ثم تضيع الملاءات معها في الأفلاك العليا إلى الأبد، حيث لا تستطيع أن تدانيها حتى أعلى طيور الذاكرة ارتفاعاً وأقدرها على التحليق.

وقد ظن الغرباء، طبعاً، أن ريميديوس الجميلة لاقت مصيرها المحتوم، ورضخت لقدرها الذي لا يرد، كما هي حال ملكة النحل، وأن عائلتها إنما اخترعت قصة صعودها الخرافية لعلها تنقذ بذلك شرفها. ولكن فيرناندا، التي كادت تموت حسداً، توصلت إلى قبول المعجزة العجيبة، وصلت زمناً طويلاً لعلّ الرب يردّ إليها أغطيتها وملاءاتها. وآمن معظم الناس بالمعجزة، فأوقدوا الشموع، وأدّوا الصلوات التسع. ولولا الجريمة البشعة التي ذبح فيها الأورليانو جميعاً لما وجد الناس حديثاً، إلى أمد طويل، غير حديث المعجزة.

ولكن الرعب حلّ محل الدهشة بعد وقوع المذبحة. وكان العقيد أورليانو بوينديا قد توقع نهاية مأساوية لأبنائه، على الرغم من أن الإشارة

المنبئة لم تصله كالمعتاد. فقد حاول هذا الأب أن يثني ابنيه أورليانو سيرادور، وأورليانو أركاديا عن الإقامة في ماكوندو. وقد نزلا فيها إبان الفوضى الكبرى. فلم يكن يرى ما يمكن لهما أن يصنعاه في بلدة غدت مكاناً غير آمن بين عشية وضحاها. ولكن أورليانو سنتينو وأورليانو تريست قدما لهما، بالاتفاق مع أورليانو الثاني، عملاً في مصانعهما. ولقد كانت لدى العقيد أورليانو بوينديا أسبابه التي كانت مبهمة.

فهو منذ رأى السيد براون داخلاً إلى ماكوندو في أول سيارة له ـ وكانت سيارة برتقالية مكشوفة لها صوت منبه (زمور) غريب يرعب عواؤه الكلاب ـ استثير فيه المحارب القديم. فقد غضب العقيد أورليانو بوينديا، عندما جعل الناس يطلقون صيحات الإعجاب الدالة على الترف وفساد الخلق، لأنه أدرك التبدل الذي حدث في طباع البشر. فقد ولى الزمان الذي كان الرجال فيه يتركون نساءهم وأطفالهم، ويذهبون إلى الحرب، بنادقهم على أكتافهم. وقد أصبحت السلطات المحلية في ماكوندو، بعد هدنة نيرلانديا، وقفاً على المحافظين الذين يجهلون المبادرة والابتكار، وعلى قضاة يختارونهم للزينة من بين المسالمين المتعبين في حزب المحافظين.

وكان أورليانو بوينديا يقول عندما يرى رجال الشرطة حفاة، سلاحهم عصا على الخشبة في لعبة (البودلينغ) :

ـ أي نظام نظام المساكين هذا !! لماذا، إذن، خضنا كل تلك الحروب؟ كأنّ هدفنا لم يكن إلاّ رفض أن تدهن البيوت باللون الأزرق !!

ومهما يكن من أمر، فقد تمّ تغيير الموظفين المحليين، منذ حلت في المنطقة شركة الموز، وحلّ محلهم موظفون آخرون غرباء صارمون، أسكنهم السيد براون في زرائب الدجاج المكهربة، لعلهم يجدون فيها ـ حسب زعمه ـ الإجلال اللائق بمناصبهم، وكي لا يعانوا من حرمان البلدة

وبعدها عن الترف، وكي لا يتعرضوا للحرارة والذباب.

ذهب رجال الشرطة الأولون، وجاء بعدهم مرتزقة قتلة حقيقيون، يحملون الفراعات والفؤوس. وكان العقيد أوريليانو بوينديا عاكفاً في مشغله، يفكر في هذه التغيرات. فأحس للمرة الأولى، خلال سنوات وحدته بصمتها وكآبتها، أنه يقع تحت وطأة يقين مطلق، خلاصته: عدم الاستمرار في الحرب حتى نهايتها التامة.

في ذلك اليوم نفسه من تلك الحقبة، كان أخو العقيد مانييفيكو فيسبال، الذي كان الناس قد نسوه الآن، يصطحب حفيده البالغ من العمر سبع سنين، كي يشتري له شراباً من إحدى العربات المقامة في الساحة العامة. فاصطدم الطفل، عن غير عمد، برقيب شرطة، فانقلب كأس الشراب على بزته. فما كان من ذلك الوحش إلاّ أن قطعه إرباً بفراعته. ولما تدخل الجد قطع رأسه بضربة واحدة. ورأت البلدة كلها القتيل يمرّ أمامها، حين نقله بعض الرجال إلى بيته. وقد حملت امرأة رأس الرجل البائس من شعره، وحملت الصرة التي جمعت فيها أشلاء الصبي الصغير.

كانت تلك الحادثة بمثابة ذروة العذاب للعقيد أوريليانو بوينديا. فقد أحس فجأة، وفي غمرة الألم، بالغضب الذي عرفه في شبابه، عند مشهد جثة المرأة التي قتلوها ضرباً بالعصيّ لأن كلباً مسعوراً عضها. فنظر إلى من توافدوا إليه يستطلعون الأنباء، وتجمعوا أمام بيته، وأرعد صوت المحارب القديم، الذي عادت إليه قوّته، وعاد إليه احتقاره لذاته. فصبّ عليهم جام غضبه وحقده الذي لم يعد يطيقه، وصاح بهم قائلاً:

ـ لسوف أسلّح أولادي يوماً، لكي نتخلص من هؤلاء الأميركيين القذرين.

وفي غضون الأسبوع نفسه، وفي أماكن مختلفة من الساحل، كان

مجرمون مجهولون يطاردون أبناءه السبعة عشر، ويحرصون على تصويب بنادقهم، وإطلاق النار، على مركز صليب الرفاه (الرماد) في جباههم. فقد كان أوريليانو تريست (الحزين) خارجاً من بيت أمه قرابة الساعة السابعة مساء عندما اخترقت جبينه رصاصة بندقية انطلقت في الظلام. أما أوريليانو سنتينو فعثر عليه في أرجوحته، التي اعتاد أن ينصبها في المعمل، وقد انغرز في جبهته، حتى المقبض، مهماز يستعمل لتحريك الجليد. وأوصل أوريليانو سيرادور خطيبته إلى بيت أهلها، بعد أن صحبها إلى السينما، وعاد عبر شارع الأتراك الذي كان ما يزال مضاء، عندما أطلق عليه شخص مجهول رصاصة من مسدس قلبته على قدر من الشحم يغلي فوق النار. وبعد دقائق قرع شخص باب الغرفة التي كان فيها أوريليانو أركايا مع امرأة، وصاح قائلاً:

ـ أسرع، إنهم يقتلون إخوتك.

وروت المرأة التي كانت معه، في وقت لاحق، أنه وثب من السرير وفتح الباب، فبادرته زخّة من رصاص مسدّس هشمت جمجمته.

في ليلة الموت الرهيبة تلك، وبينما كان أهل البيت يستعدون للسهر الحزين على الجثث الأربع، خرجت فيرناندا كالمجنونة تبحث عن أوريليانو الثاني، الذي كانت بيترا كوتيس قد خبّأته في خزانة. فقد أدركت بحسها أن أمراً ما قد صدر بقتل كل من يحمل اسم العقيد. ولم تسمح له بالخروج حتى اليوم الرابع من الجرائم، وبعد أن بدأت البرقيات تتوارد من مختلف الأماكن على الساحل، منبئة بأن العدو الخفيّ (غير المرئيّ) قد استلم التوجيهات لقتل الإخوة الذين عُلّمت جباههم بصليب الرماد (الرفاه) وحدهم.

وجلبت أمارانتا السجل الذي قيدت فيه العناوين والمعلومات الخاصة بأبناء أخيها، وأخذت تشطب اسم كل واحد منها عندما كانت ترد برقية

تفيد بمقتله، حتى لم يبق منهم إلاّ الابن البكر.

وكان الجميع يذكرونه جيداً، بسبب التضاد الناشىء عن لون بشرته الأسمر الداكن واللون الأخضر لعينيه الكبيرتين. وكان اسمه أوريليانو أمادور (العاشق). وكان يعمل نجاراً، ويسكن في قرية نائية مخبّأة في سفوح الجبال. وبعد أن انتظرت العائلة فترة أسبوعين، لم تصل فيهما برقية تنبىء بمقتله، أرسل إليه أوريليانو الثاني رسولاً يحذره، ظناً منه أنه يجهل الخطر المحدق به. وعاد الرسول مبشراً بأن أوريليانو أمادور (العاشق) كان سالماً معافى. ففي ليلة الإبادة وصل إليه رجلان يبحثان عنه في بيته، وأفرغا عليه رصاص مسدّسيهما، ولكنهما لم يفلحا في إصابة الصليب على جبهته. واستطاع أوريليانو أمادور (العاشق) أن يقفز من فوق سور الدار، وأن يتوارى في متاهات الجبال، التي كان يعرفها جيداً بفضل صداقته للهنود وتعامله معهم في تجارة الخشب. ومنذئذ لم يستطع أحد أن يعرف أو أن يسمع عنه شيئاً.

كانت تلك أياماً سوداء في حياة العقيد أوريليانو بوينديا. أرسل إليه رئيس الجمهورية برقية تعزية يعده فيها بإجراء تحقيق واسع، ويقدم احترامه للمفقودين. وبناء على أوامر رئيس الجمهورية، حضر رئيس البلدية صلاة الجنازة، وقدّم عند الدفن أربعة أكاليل جنائزية، أراد أن يضع على كل نعش واحداً منها. ولكن العقيد أوريليانو بوينديا حال دون ذلك وأخرجه إلى الشارع. وبعد التشييع، كتب العقيد برقية شديدة اللهجة، وأخذها بنفسه إلى البريد. ولكن الموظف رفض أن يرسلها. وعندها أضاف إليها جملاً وعبارات أقسى وأشد، ووضعها في غلاف، ثم أرسلها في البريد العادي. وكما عانى العقيد يوم وفاة زوجته، وكما عانى مرات كثيرة خلال سني الحرب لدى موت أعزّ أصدقائه ،لم يصبه شعور بالحزن، بل هياج وغضب أعمى، وإحساس رهيب بالعجز عن

الفعل. فاتهم بالتآمر حتى الأب أنطونيو إيزابيل، الذي وسم أبناءه برفاة (رماد) لا يزول، كي يمكّن أعداءه من تمييزهم. وكان الراهب المسكين قد عجز، فلم يعد يستطيع ترتيب أفكاره، بل كان كثيراً ما يخيف الرهبان بتفسيراته التوراتية الغريبة يلقيها من على منبر الكنيسة. فجاء البيت ذات عصر، يحمل الإناء الذي يحضر فيه الرفاة (الرماد) كل يوم أربعاء. وأراد أن يسم كل العائلة به، لعله يثبت أنه يزول بمجرد غسله بالماء. ولكن الخوف من الكارثة كان ما يزال شديد العلوق بالأذهان، حتى رفضت أمارانتا نفسها أن تستسلم للتجربة. ولم ير أحد بعد ذلك أياً من آل بوينديا راكعاً أمام الطاولة المقدسة في أربعاء الرفاة (الرماد).

وظل العقيد أوريليانو بوينديا مدة فاقداً توازنه العقلي. ولم يكن يأكل إلاّ لماماً، وقد أهمل صناعة الأسماك الصغيرة. وأخذ يجوب البيت على غير هدى، كأنما هو منوّم، يجر دثاره خلفه، ويجتر غضبه الأعمى، وقد اشتعل رأسه شيباً خلال أشهر ثلاثة، وتهدل شارباه، المعقوفا الطرفين، على شفتيه اللتين باتتا بلا لون. ولكن عينيه، من ناحية أخرى، عادتا جمراً ملتهباً، ذلك الالتهاب الذي أفزع من رآوه ساعة ولادته، والذي كانت تهتز منه الكراسي والأشياء لمجرد النظر إليها.

وحاول في عذابه وحنقه المتصلين أن يستثير في نفسه قدرته على التنبؤ والتفاؤل، التي كانت دليله، أيام شبابه، في الدروب الخطرة التي كان يسلكها، حتى وصل إلى صحراء المجد الموحشة. ولكنه كان ضائعاً، كأنما قد ضربته صاعقة فألقت به في بيت غريب ليس فيه شيء أو إنسان يمنحه أو يستثير فيه عاطفة من الحب.

وبينما كان في أحد الأيام يبحث في مخلفات الماضي، الذي سبق الحرب، فتح غرفة ملكيادس، فلم يجد فيها سوى الخراب والوسخ، وقد تراكم فيها الغبار عبر سنوات النسيان والإهمال. وقد تكدس التراب

على أغلفة الكتب التي لم يقرأها أحد منذ تلك الأيام، فأثرت فيها الرطوبة وهي مرتبة على رفوفها. وبين طبقات العفن والرطوبة والرقاع التالفة، نمت زهرة وترعرعت. وفي هواء تلك الغرفة التي لم يكن في مثل نقائه هواء، وفي إشراقتها التي لم تشابهها إشراقة في البيت، انتعشت رائحة عفنة من الذكريات القديمة.

وفي صباح أحد الأيام شاهد العقيد أوريليانو بوينديا أمه تحت شجرة الكستناء القديمة الكبيرة جالسة تبكي منتحبة على ركبتي زوجها الميت منذ زمن طويل.

وكان العقيد أوريليانو بوينديا الوحيد، بين سكان البيت، الذي لم يكن قد رأى، بعد، أباه، ذلك الرجل القويّ العجوز، الذي أنهكه نصف قرن من الزمان قضاه جالساً في العراء. فنادته أورسولا قائلة :

ـ تعال، وحيِّ أباك.

فتوقف لحظة أمام شجرة الكستناء، فوجد أن المكان فارغ، وأن ذلك المكان لم يوقظ في نفسه أية عاطفة من الحب. فسألها :

ـ ماذا يقول؟.

فأجابت :

ـ إنه حزين جداً. وهو يعتقد أنك سوف تموت. فابتسم العقيد وقال :

ـ قولي له : إن الإنسان لا يموت عندما يريد، بل يموت عندما يستطيع.

وأثار نذير أبيه الميت فيه بقايا كبريائه العظيمة التي كانت ما تزال يعج بها قلبه، على الرغم من أنه رأى فيها دليلاً مفاجئاً على استعادة قوته.

ولهذا راح يصر على أمه لعلها تعلمه عن المكان في باحة الدار الذي دفنت فيه القطع الذهبية التي اكتشفت في تمثال سان خوزيه المصنوع من

الجبس. فقالت له أورسولا بالعناد الذي تصنعه الشيخوخة وقسوة تجارب الحياة :

ـ لن تعرف ذلك أبداً.

ثم أضافت قائلة :

ـ سوف يعود صاحب هذه الثروة يوماً، وهو وحده الذي يستطيع إخراجها من الأرض.

وراح أهل الدار جميعاً يتساءلون عن السبب الذي يدفع ذلك الرجل المعروف بسخائه للاهتمام بالمال متنازلاً عن كرامته ليطلبه بهذه الشهوة وذلك الإلحاح، وهو الذي ما أقام للمال، طيلة عمره، وزناً. وهو الآن لا يطلب القليل منه، الذي يكفيه لسدّ نفقاته المتواضعة ومصروفاته الطارئة. فهو إنما يطلب ثروة هائلة لا يكاد يحيط بها عقل. حتى إن أوريليانو الثاني، عندما سمع بتقديرها، أصيب بما يشبه الذهول. أما رفاق العقيد الحزبيون القدامى، الذين ذهب إليهم يطلب العون، فقد عمدوا إلى الاختباء منه وتجنب استقباله. وقد سمع عنه أنه كان يقول في تلك الفترة :

ـ إن الفرق الوحيد بين الأحرار والمحافظين هو أن الأحرار يذهبون للصلاة في الساعة الخامسة، بينما يذهب المحافظون للصلاة الساعة الثامنة.

وأصرّ العقيد على مطلبه واستبسل في سبيله، ورجا من أجله بكل قواه، مخالفاً في ذلك ما عرف عنه من هيبة ووقار. وقد استطاع، بالانتقال من هنا إلى هناك، وشيئاً فشيئاً، وهو يقصد كل مطرح، بحماسة وكتمان وصبر ودأب ومثابرة لا مثيل لها، أن يجمع في غضون ثمانية شهور، مالاً يزيد كثيراً على ما كانت تخفيه أمه أورسولا. وأخيراً، ذهب إلى العقيد جيرينيلدو ماركيز، الذي كان ما يزال كسيحاً، يجدد

الصلة به لعله يعينه في إشعال حرب شاملة من جديد.

والواقع أنّ العقيد جيرينيلدو ماركيز قد ظل، طوال مدة من الزمن، الرجل الوحيد الذي يقبض من مقعد كساحه على جميع خيوط الثورة الصدئة. فقد بقي، بعد هدنة نيرلانديا، على اتصال بالضباط الثوار الذين حافظوا على وفائهم له حتى في زمن الانهيار، في حين لاذ العقيد أوريليانو بوينديا بمنفاه الاختياري في مشغله مع أسماكه الذهبية الصغيرة. فقد خاض العقيد جيرينيلدو ماركيز معهم حرب الإذلال اليومية البشعة الحزينة، وعرف حرب الاستدعاءات والإنذارات و «تعالوا غداً» و «في أي وقت منذ الآن» و «نحن ندرس حالتك بما تستحق من الاهتمام»، وغيرها من علامات التسويف والإهمال. تلك الحرب الخاسرة، دون شك، ضد أناس يبدون لك الطيبة والعواطف، وينبغي لهم أن يوقعوا لك الموافقة على مرتب التقاعد، ولكنهم لا يوقعون، رغم ما يبدونه لك من علائم الإخلاص.

فلقد كانت الحرب الفعلية الأولى، التي ارتقت فيها الدماء طوال عشرين عاماً، أسهل عليهم من حرب التسويف القاتل، تلك التي تنهكهم إنهاكاً.

وكان العقيد جيرينيلدو ماركيز قد نجا من ثلاث محاولات اغتيال، وشفي من خمسة جروح، وخرج سليماً من عدد لا يحصى من المعارك. ولكن حصار الانتظار قد أضناه، فذوى شبابه، وهدّته الشيخوخة البائسة وهو يحلم بأمارانتا ويتخيلها بين بقع الضوء الساطعة على هيئة قطع الماس في البيت المستعار الذي كان يعيش فيه. أما آخر أخبار المقاتلين المخضرمين، فكانت عبارة عن صور لهم في جريدة، وهم يرفعون رؤوسهم الذليلة إلى جانب رئيس جمهورية غير معروف، يقدم لهم هدية من بضعة أزرار حفرت عليها صورته، كي يضعوها على ياقات

معاطفهم، ويعيد لهم علماً مصبوغاً بالدم والبارود كي يلفوا به نعوشهم. أما الآخرون، الأكثر عزة وشرفاً منهم، فكانوا ما يزالون ينتظرون رسالة في ظل الإحسان العام، وهم يتضورون جوعاً، ولكنهم يعيشون في حزنهم وغضبهم طويلاً، ويتعفنون في شيخوختهم على مزابل المجد التليد.

ولذلك كله، عندما دعا العقيد أوريليانو بوينديا العقيد جيرينيلدو ماركيز إلى مشاركته في أن يشعلا ثورة شعواء لا تبقي ولا تذر أثراً للفضائح والفساد الذي كان يدعمه ويؤيده المحتل الأجنبي، لم يتمالك الأخير نفسه، ولم يقو على أن يحول دونه قشعريرة شفقة هزّت بدنه، فقال متنهداً :

-آه، يا أوريليانو. فلقد كنت أعرف أنك قد شخت وهرمت. ولكنني أكتشف الآن أنك أكثر شيخوخة مما يبدو عليك.

(١٣)

كانت أورسولا، في دوامة السنوات الأخيرة من حياتها، لا تستطيع توفير سوى القليل من الوقت الذي كانت تهتم فيه بثقافة خوزيه أركاديو البابوية. ثم حان وقت إعداده للسفر سريعاً إلى الدير. وكانت أخته ميمي موزعة الوقت والعيش بين تزمت فيرناندا ومرارة أمارانتا، حتى بلغت العمر الذي ترسل فيه إلى مدرسة الراهبات ،لتعيش حياة داخلية في الدير. حيث تتعلم العزف على الآلات الموسيقية كما هيأها أهلها. وكانت أورسولا تعيش معذبة بين ما كان يساورها من القلق الشديد بشأن نجاعة الوسائل التي استعملت للتخفيف من حدة طباع الحبر الأعظم العتيد، وتهدئة أعصابه.

ولم تكن أورسولا تعزو مسؤولية ذلك إلى عجزها وشيخوختها وضعفها، ولا إلى الغيوم التي كانت تحجب عن بصرها ملامح الأشياء، بل كانت تعزو ذلك إلى شيء غامض لا تستطيع سبر غوره ومعرفة كنهه بوضوح، فيلتبس الأمر على خيالها، ولا تجد سوى فساد الزمن الراهن المتدرج انحداراً في انهياره. كانت تشعر بأن زمام وقائع الحياة اليومية يفلت من يديها، فتقول :

ـ إن السنين، في هذه الأيام، لا تمرّ كما كانت تمرّ من قبل. فهي تشعر أن نمو الأطفال كان أبطأ في الأيام الخوالي. فيكفيها أن تذكر كم مضى من الزمن قبل أن يذهب ابنها البكر، خوزيه أركاديو، مع الغجر،

وكل ما حدث له حتى عاد ملوناً كالحرباء، يتحدث كعالم الفلك، وأن تذكر الأمور التي حدثت في البيت قبل أن ينسى أركاديو وأمارانتا لغة الهنود ويتعلما اللغة الإسبانية.

كان يكفي أن تستعيد ذكريات أيام الشمس وليالي العراء التي قضاها المسكين خوزيه أركاديو بويندا تحت شجرة الكستناء، وكم بكت موته قبل أن يعود العقيد أوريليانو بويندا ليجده على شفا الموت، ويكفيها أن تحسب أنه، بعد كل تلك الحروب التي خاضها وخرج منها سالماً، بعد كل ما عاناه من آلام، لم يبلغ الخمسين من عمره.

كانت قديماً تمضي وقتاً طويلاً في صنع حلويات الكراميلا، على هيئة حيوانات صغيرة، ويبقى لها من الوقت ما يكفي للعناية بالأطفال، والنظر إلى بياض عيونهم قبل أن تسقيهم جرعة من زيت الخروع. أما الآن فهي لا تفعل شيئاً. فهي تذرع البيت جيئة وذهاباً، من الصباح والمساء، وهي تحمل خوزيه أركاديو على جانبها. ولكن عدم كفاية الوقت كانت تجعلها تترك الأمور دون أن تكمل أكثر من نصف عملها.

كانت أورسولا، في الواقع، تقاوم الشيخوخة، وهي لا تعرف عدد سني عمرها. وهي دائماً حيث لا ينبغي لها أن تكون، ما تفتأ تلاحق الغرباء بأسئلتها المتكررة لهم، ما إذا كانوا تركوا في البيت، زمن الحرب، تمثالاً من جبس للقديس خوزيه أمانة ريثما يتوقف هطول المطر. ولم يستطع أحد أن يعرف تماماً متى بدأت تفقد بصرها. والواقع أن أحداً لم يكتشف قط أنها فقدت بصرها كلياً حتى أواخر سني حياتها، حين أقعدها العجز، ولم تعد تستطيع مفارقة سريرها. أما هي فقد أدركت عماها قبل ميلاد خوزيه أركاديو. وقد ظنت، في بادىء الأمر أن ذلك لا يتعدى ضعفاً موقتاً، فجعلت تتناول، سراً، خلاصة المخ، وتمسح عينيها بعسل النحل. ولكنها ما لبثت أن أدركت أنها إنما كانت تخبط خبط

عشواء في ظلام دامس. حتى إنها لم تخبر فعلاً باختراع النور الكهربائي، ولا تبيّنت نور أول مصباح عرفه البيت إلاّ حزراً غامضاً. ولم تحدث أحداً قط عن بلواها، لأن ذلك كان يعني عندها اعترافاً قاطعاً بعجزها وانعدام نفعها. فعاندت القدر، وراحت تعلم نفسها أبعاد الأشياء، وأصوات الناس، لعلها ترى بالذاكرة ما لا يمكنها من رؤيته ذلك الحجاب الكثيف من الغيوم السوداء الكثيفة. ثم جعلت تستعين بروائح الناس والأشياء، تستدل بها في الظلام، بقوة تغنيها عن الأحجام والألوان، وتنقذها تماماً من عار الاستسلام. فكانت تستطيع، في عتمة الغرفة، أن تدخل الخيط في سمّ الإبرة، وتخيط العروة، وتعرف متى يفور الحليب على النار. ثم اكتسبت قدرة لا تخطىء في تحديد مواقع الأشياء، حتى كثيراً ما كانت هي نفسها تنسى أنها عمياء.

وفي أحد الأيام، أقامت فيرناندا الدنيا وأقعدتها بحثاً عن خاتم زواجها الذي ضيّعته، ولم يجده غير أورسولا التي عثرت عليه على أحد الرفوف في غرفة الأطفال. وقد كان طبيعياً، في مثل حالها، أن تراقب الآخرين، في رواحهم وغدوهم، إلى هنا وهناك، دون انتباه منهم، مستخدمة في ذلك حواسها الأربع الأخرى، كي لا يكتشف أحد ضعفها. وقد استطاعت أن تكتشف بعد زمن أن كل فرد في العائلة، دون وعي منه، يسلك الطريق نفسها، ويأتي الأفعال والتصرفات ذاتها، بل يعيد تقريباً الكلمات عينها في الوقت نفسه من اليوم . وما كانوا يتعرضون لفقدان شيء إلاّ حين كانوا يخرجون عن تلك الرتابة وذلك النظام الدقيق لحياتهم بأبسط تفاصيله.

فعندما سمعت أورسولا فيرناندا تعبر عن انزعاجها وتندب حظها لضياع خاتم زواجها، اكتفت بتذكر ما فعلته فيرناندا مما يخرج على المألوف من أعمال يومها، وتوصلت إلى أنها نشرت في الشمس الحصر

التي ينام عليها طفلاها، لأن ميمي كانت قد اكتشفت في الليلة السابقة واحدة من بقّ السرير. وبما أن الطفلين كانا حاضرين عند عملية التنظيف، فقد فكرت أورسولا بأن فيرناندا لا بد أن تكون قد وضعت الخاتم في المكان الوحيد الذي لا يصلان إليه، وهو الرف. ولم تبحث فيرناندا عن الخاتم إلاّ في أماكن تحركها اليوميّ جيئة وذهاباً. وهي لا تدري أن البحث عن الأشياء الضائعة تعوقه الرتابة في العادات وعمل الأشياء، ولذلك يذهب بحث الإنسان عنها هباء.

وقد تمكنت أورسولا، من خلال رعايتها لخوزيه أركاديو وتعليمه، من الاضطلاع بمهمة شاقة، وهي أن تكون على علم بأحدث التغيرات والتبدلات التي تحصل في البيت. فعندما علمت أن أمارانتا كانت تنوي كسوة القديسين الذين في غرفة النوم، تظاهرت بأنها تريد أن تعلم الطفل اختلاف الألوان. وكانت تقول له :

ـ هيّا، قل لي ما لون الثوب الذي يرتديه الملاك روفائيل.

وبهذه الطريقة، كان الطفل ينقل إليها المعلومات التي أفقدها إياها فقدان البصر. واستطاعت أورسولا، قبل أن يرحل خوزيه أركاديو الصغير إلى المدرسة، أن تميز ألوان ثياب القديسين من مجرد لمس قماشها. وقد كانت تحدث أحياناً بعض حالات الوقوع في الخطأ التي لم تحتط لها. ففي عصر أحد الأيام، وبينما كانت أمارانتا تطرز في الشرفة ذات أزهار البيجونيا، اصطدمت بها أورسولا. فعبرت أمارانتا عن ضيقها بذلك قائلة :

ـ انتبهي لطريقك، بحق السماء.

فما كان من أورسولا إلاّ أن أجابت :

ـ أنت التي يجب أن تنتبهي. . فالخطأ منك، لأنك لا تجلسين في مكانك.

وقد كانت واثقة مما تقول. ولكنها اكتشفت في ذلك اليوم أمراً لم يتنبه له أحد حتى ذلك الحين. فقد أدركت أن الشمس تبدل مكانها بشكل ملحوظ، على مرّ الشهور. ولذلك، كان الذين يجلسون في الشرفة يغيرون أماكن جلوسهم تدريجاً دون شعور منهم. ومنذ ذلك الوقت، كان يكفي لأورسولا أن تعرف تاريخ اليوم والشهر، حتى تستطيع تحديد المكان الصحيح الذي تجلس فيه أمارانتا.

وقد كانت أورسولا، على الرغم من الرجفة في يديها، وقد بدت ظاهرة تزداد بوضوح، وعلى الرغم من مشيتها الزاحفة بتثاقل بطيء، فقد كانت ما تزال ترى في مختلف أماكن البيت. كانت كأنها ما تزال بنشاطها الشديد أيام كانت تتحمل أعباء البيت وحدها. وقد كانت، في أواخر أيام شيخوختها، تتمتع بصفاء ذهني ملحوظ، يمكنها من مراجعة تاريخ العائلة وتفحص كل تقلباته، حتى التافه منها والبسيط. وقد استطاعت، للمرة الأولى، أن تلقي الضوء على حقائق كانت مشاغلها قد صرفتها عن ملاحظتها.

وبينما كان أهل الدار يعدون الأمور لرحيل خوزيه أركاديو إلى المدرسة، قامت أورسولا بمراجعة في غاية الدقة لما كانت عليه حياة العائلة منذ إنشاء ماكوندو. وأعادت النظر في أفكارها وآرائها القديمة بشأن أبنائها. فأدركت أن قسوة العقيد أوريليانو بوينديا، التي أفقدته حب العائلة، لم يكن سببها الحرب، كما كانت تظن من قبل. فهو رجل لم يعرف الحب قط. فهو لم يحب حتى زوجته ريميديوس، ولا نساء الليل العابرات في حياته، وهنّ كثيرات، وأقل من تلك وهؤلاء كان حبه لأبنائه، وقد ظنت أنها اكتشفت أنه لم يخض معاركه الحربية كلها عن مثالية، وأنه لم يتخلّ عن النصر الذي كان قريباً لأنه تعب كما قدّر الآخرون، بل إنه قد ربح وخسر بدافع واحد هو خطيئة الغرور.

وتوصلت إلى نتيجة جعلتها تعتقد أن ذلك الابن، الذي كان يمكن أن تقدم حياتها من أجله ببساطة، لم يكن قادراً على الحب.

ففي إحدى الليالي، سمعته يبكي وهو ما يزال جنيناً في أحشائها. وكان نحيبه واضحاً، حتى إن خوزيه أركاديو بوينديا، وكان نائماً قرب أورسولا، استفاق فزعاً. ثم شعر بالسعادة لمجرد التفكير بأن ابنه قادر على الكلام وهو في بطن أمه. وظنّ بعض الناس أنه سوف يكون متنبئاً. أما هي فقد اهتز كيانها كله لأنها أيقنت أن الهمهمة العميقة الصادرة عن جنينها إنما كانت الدليل الأول على ذنب الخنزير. ودعت الله أن يموت الجنين في رحمها. ولكن صفاء الذهن الذي ميّز شيخوختها الطويلة، مكّنها من الاستنتاج، وهو ما ذكرته في مناسبات كثيرة، أن بكاء الطفل في رحم أمه ليس دليلاً أو مؤشراً على أنه سوف يتكلم في بطن أمه، أو أنه سوف يكون متنبئاً، بل دليل لا يقبل الخطأ على أنه سوف يكون شخصاً غير قادر على الحب. وعندما هبطت صورته في خيالها، استيقظت أحاسيس الرأفة والشفقة فيها عليه.

أما أمارانتا التي كانت تخيفها قسوة قلبها وتحزنها مرارتها العميقة، فقد أظهرت تلك المراجعة أنها أكثر النساء رقة ووجداً وحباً. وأدركت أورسولا بوضوح حزين أن العذاب الذي سببته أمارانتا لبيترو كريسبي لم يكن سببه شهوة الانتقام، كما كان يظن بعض الناس، ولم يكن سمّ مرارتها، كما ظن الآخرون، هو الذي دفعها إلى جعل حياة العقيد جيرينيلدو ماركيز خيبة وفشلاً وموتاً بطيئاً. وإنما كان ذلك كله ناشئاً عما كانت تعانيه، في الحالين، من معركة شرسة بين حب لا يعرف الحدود، وجبن لا يقاوم. وانتهى بها الأمر إلى أن انتصر فيها خوفها اللامعقول الذي ولد معها، وسبب لها عذاب قلبها الممزّق.

في تلك الفترة ذاتها، بدأت أورسولا تذكر اسم روبيكا، وتذكرها

بعطف مفاجىء زادت فيه توبتها المتأخرة والإعجاب الحديث بها. فلقد أدركت أن روبيكا وحدها، وهي التي لم ترضع من لبنها، بل كانت تتغذّى من تراب الأرض وكلس الجدران، وهي التي لا يجري في عروقها الدم الذي يجري في عروقها هي، بل يجري بدلاً منه دم مجهول ورثته من أناس مجهولين، ما تزال عظامهم تقعقع في قبرها. روبيكا ذات القلب الملوكي والبطن الشره، كانت هي الوحيدة التي تملك الشجاعة الحازمة التي جعلت أورسولا تتمنى لو أنها كانت ابنتها، أو لو أن ابنتها أمارانتا كانت تملكها. فكانت أورسولا تقول وهي تتقرّى تضاريس الحائط:

ـ روبيكا، ما كان أشدّ ظلمنا لك، يا روبيكا!!.

واكتفى أهل البيت بأن اعتقدوا بأن أورسولا قد فقدت صوابها وأصيبت بالخرف منذ أن بدأت تمشي وهي رافعة يدها اليمنى مثل كبير الملائكة جبرائيل. ولكنّ فيرناندا وحدها أيقنت أنّ شمساً من الوضوح الساطع كانت تختفي في ظلال التجوال. ذلك أن أورسولا كانت تعرف وتعلن، دون تردد، المبالغ التي أنفقوها خلال السنة الماضية بطولها. وقد توصلت أمارانتا إلى الفكرة عينها عندما رأت أمها في المطبخ تصيح فجأة، وهي تحرك الحساء في القدر، جاهلة أن هناك من يسمعها، أنّ مطحنة الذرة، التي كانوا قد اشتروها من الغجر الأوائل، والتي اختفت خلال الوقت الذي سبق رحلات خوزيه أركاديو الخمس والستين حول العالم، كانت ما تزال في بيت بيلار تيريزا. وكانت بيلار، هي الأخرى، قد شارفت على المئة عام من العمر، ولكنها كانت ما تزال محافظة على قوتها ورشاقة حركتها، على الرغم من سمنتها وبدانتها التي كانت تخيف الأطفال، مثلما كانت ضحكتها قديماً تخيف الحمام. ولم تندهش بيلار تيريزا عندما علمت أن أورسولا قد عرفت الحقيقة، لأنّ خبرتها علمتها أن

الشيخوخة اليقظة تمكن الإنسان من تمييز الأشياء أكثر مما يمكنه من ذلك اللجوء إلى ورق اللعب.

عندما أدركت أورسولا أن الوقت الذي أتيح لها لم يكن كافياً لتمتين مهنة خوزيه أركاديو الصغير واتجاهه، استسلمت للحزن الذي كاد يقضي عليها، ومنذئذ بدأت تقع في الخطأ تلو الخطأ، وهي تحاول أن ترى بعينيها الأشياء التي كانت تستطيع تمييزها بالحدس بشكل أفضل. ففي صباح أحد الأيام، صبّت ما في المحبرة من حبر على رأس الصبيّ، ظناً منها أنه ماء الزهر. وسبّب لها حب استطلاعها، وعادة دس أنفها في كل أمر، حوادث ونزاعات كثيرة، كانت أحياناً تؤدي بالآخرين إلى صبّ جام غضبهم عليها، وإلى خلخلة كبيرة في كيانها، عندما بدأت تشعر بالانزعاج من الضيوف ومرحهم غير اللائق. فحاولت أن تتخلص من الظلام الذي كان يطبق عليها كخيمة من بيوت العناكب. وعندئذ بدأت تعزو عدم حذقها إلى فساد الزمان الذي أصدر عليها حكمه، وليس إلى هزيمتها أمام العجز والظلام.

كانت تقول في نفسها: إنّ الأمور كانت مختلفة عندما كان الرب لا يبدّل الشهور والسنين ويخالف فيها، كما يغش الأتراك في قياس طول النسيج. والآن يكبر الأولاد أسرع، وتتطور العواطف والمشاعر بشكل مختلف.

وكانت فيرناندا اللامبالية، منذ أن صعدت ريميديوس الجميلة إلى السماء، روحاً وجسداً، تنزوي في إحدى زوايا البيت شاكية متذمرة، لأنها فقدت ملاءاتها وأغطيتها. وقبل أن تبرد جثث أولئك الذين كانوا يحملون اسم أوريليانو في القبور، أنار أوريليانو الثاني البيت كله، بلا تردد. فازدحم البيت بالسكارى يعزفون على آلة الأكورديون، ويغرقون أنفسهم بالشمبانيا حتى لكأنهم لم يعودوا مسيحيين، بل كلاب ميتة.

وكأن ذلك البيت المجنون، الذي كلف ما لا يعد ولا يحصى من الصراع والآلام، ومن حلويات الكراميلا المصنوعة على شكل حيوانات صغيرة، كان مقدّراً له أن يصبح ملتقى لكل الخلاّن من الخطاة.

عرضت أورسولا كل هذه الخواطر في ذهنها، بينما كان من في البيت يرتبون حقيبة خوزيه أركاديو الصغير للرحيل، ثم تساءلت حول ما إذا لم يكن من الخير لها أن تستقر في قبرها وتستريح، بعد أن ينهال عليها التراب. وكانت تسائل الرب، بلا وجل، ما إذا كان يرى أن البشر مصنوعون من معدن حتى يحتملوا كل هذه الصنوف من الألم والعذاب. ثم تتحول من سؤال إلى سؤال ممعنة في التأمل والتفكير، فما تزيد نفسها إلا مزيداً من تبكيت الضمير.

وفجأة، أحست برغبة شديدة في أن تتصرّف كما يتصرف الأميركيون، وأن تسمح لنفسها بلحظة ثورة وتمرد على ذاتها. فقد حانت اللحظة التي طالما تمنتها، ولكنها كانت تهصرها أو تبعدها عن إطار سلوكها. وقد عزمت الآن على أن تدفع عنها الرضا، وأن تستهتر هكذا دفعة واحدة، علها تخفف عن قلبها المسكين ما كان ينوء تحته من ملايين الأطنان من الكلمات البذيئة، التي كانت تجترها طوال قرن كامل من الانتظار الممض القاتل. فصاحت قائلة :

ـ يا للقذارة !!.

فظنت أمارانتا، وكانت ترتب الثياب في الحقيبة، أنّ عقرباً لسعتها، فسألت مذعورة :

ـ أين هي؟.

وردّت أورسولا :

ـ ماذا؟.

فقالت أمارانتا :

ـ الحشرة، البقّة.

فأشارت أورسولا بأصبعها إلى موضع القلب من صدرها قائلة :

ـ هنا.

سافر خوزيه أركاديو الصغير يوم الخميس، في الساعة الثانية من بعد الظهر، إلى المدرسة. ولم تبرح صورته خيال أورسولا، منذ أن غادر البيت. فكانت تتخيله دائماً كما كان ساعة ودّعته: «ضعيف البنية، جديّاً، عصيّ الدمع ـ كما علّمته أن يكون ـ يكاد يخنقه الحرّ وهو يرتدي بزته المخملية الموشحة بالأخضر والأزرار النحاسية، ذات الياقة المنشّاة حول العنق. فالآن غادر غرفة الطعام التي كانت تعبق برائحة ماء الزهر الذي سكبته على رأسه وسائر جسمه، كي تستطيع اقتفاء أثره أنّى تجول في الدار. وقد التقى أفراد الأسرة جميعاً في غداء الوداع. أما هي فكانت تحاول إخفاء عصبيتها خلف مظاهر المرح. فصفقت بحماسة بالغة لخطاب الأب أنطونيو إيزابيل. ولكنها، عندما خرجت الحقيبة المبطنة بالمخمل، ذات الزوايا الفضية، من البيت، انقلب الأمر كله رأساً على عقب. وكأنما الذي خرج من البيت نعش لإنسان عزيز.

أما الوحيد الذي أبى المشاركة في الوداع فهو العقيد أوريليانو بوينديا، الذي تمتم قائلاً :

ـ لم يعد ينقصنا سوى هذا الإزعاج : بابا؟ !.

وبعد ثلاثة أشهر من هذا الحدث اصطحبت فيرناندا وأوريليانو الثاني ميمي إلى المدرسة الداخلية. ثم عادا ومعهما آلة الكلافسان الموسيقية، فوضعاها مكان البيانو الآلي.

وفي تلك الفترة، بدأت أمارانتا بخياطة كفنها. وهدأت طفرة الموز. وأفاق سكان ماكوندو الأوائل على أنفسهم، وإذا بهم محاصرون، قد سدّ

عليهم الأماكن والطرقات القادمون الغرباء الجدد. فباتوا بشق الأنفس يقوون على التمسك بوسائل العيش العتيقة. ولا يعزيهم في ما انتهوا إليه إلاّ شعورهم بأنهم كانوا قادرين على البقاء والاستمرار في العيش بعد أن أغرقهم الطوفان.

وظلّ البيت يستقبل المدعوين لتناول طعام الغداء. ولكن العادات القديمة لم تعد فعلاً إلى سالف عهدها إلاّ بعد سنين وسنين، وذلك عندما رحلت شركة الموز. وقد طرأت تبدلات أساسية على معاني الضيافة التقليدية ومراسمها، بعد أن سادت قوانين فيرناندا في الدار. فقد استطاعت فيرناندا، خريجة المدرسة الملكية، بعد أن قبعت أورسولا في ظلام عماها، وانهمكت أمارانتا بإعداد كفن موتها، أن تختار الضيوف بحرية مطلقة، بعد أن تخضعهم للطقوس والعادات المتزمتة التي ورثتها عن أهلها. فأحالت صرامة طقوسها البيت إلى قلعة للتقاليد الأرستقراطية، في بلدة قلبتها رأساً على عقب فوضى الغرباء ورعاعيتهم وإسرافهم في التبديد السريع لثرواتهم.

فكانت فيرناندا، بكل بساطة، ترى أن الناس المهذبين هم الذين لا يمتون بأية صلة إلى شركة الموز. حتى صار أخو زوجها، خوزيه أركاديو الثاني، ضحية حماستها للتمييز العنصري. ذلك لأنه ترك، من جديد، ديكة القتال الممتازة، واندفع بحماسته الملتهبة المعهودة إلى العمل في شركة الموز. فقالت فيرناندا :

ـ لن تطأ قدمه أرض هذا البيت ما دام مصاباً بجرب الغرباء.

فرضت فيرناندا جوّاً طاغياً من الجدية على البيت، حتى لم يعد زوجها، أوريليانو الثاني، يطيق الحياة فيه. وبات لا يستمتع بالعيش إلا عند محظيته بيترا كوتيس. فنقل وسائل متعته وملذاته إلى بيت بيترا كوتيس بحجة إراحة زوجته من بعض المتاعب. ثم نقل الاسطبلات

والحظائر بدعوى أن خصوبة الحيوانات قد تدنّت. وأخيراً نقل مكتبه الصغير، الذي كان يجري فيه حسابات أعماله، إلى دار محظيته، زاعماً أن الحرارة في دارها أخف وأن الجوّ هناك ألطف. ولم تكن العودة إلى سابق العهد أمراً سهلاً، بعد أن أدركت فيرناندا أنها أصبحت أرملة ولكن زوجها على قيد الحياة. ولكن أوريليانو الثاني ظل يتردد على البيت ويأكل فيه، وتابع الحرص على إنقاذ بعض المظاهر، كأن يستلقي إلى جانب زوجته في السرير. ولكن هذا كله لم يعد كافياً لإقناع أحد ولا سيما فيرناندا.

وفي إحدى الليالي، سها أوريليانو الثاني، ففاجأه الصباح، وهو ما يزال في سرير بيترا كوتيس. فلم تعاتبه فيرناندا بكلمة واحدة، خلافاً لكل التوقعات. ولم تصدر عنها أية تنهيدة حزن. ولكنها أرسلت في اليوم نفسه، إلى بيت محظيته، صندوقين مليئين بثيابه. أرسلتهما في وضح النهار، وأصدرت أوامرها بأن ينقلا عبر الشارع العام، لكي يرى الناس ذلك جميعاً. وكانت ترجو ألاّ يقوى زوجها الضال على احتمال تلك الإهانة، فيعود ذليلاً إلى مذوده ومعلفه. ولكن تلك الحركة البطولية الدرامية منها لم تكن سوى دليل آخر، إذا كانت هناك حاجة لدليل، على أنها كانت تجهل تماماً طبيعة زوجها وطباعه. كما كانت تجهل طبيعة المجتمع المتأصلة فيه، والتي تختلف كل الاختلاف عن طبيعة أهلها المجتمعية. فجميع الذين رأوا الصندوقين، المحمولين في الشارع العام، أيقنوا أنّ هذه هي النهاية الطبيعية لقصة كانوا يعرفون تفاصيلها الدقيقة.
أما أوريليانو الثاني فما كان منه إلاّ أن أقام وليمة كبرى دامت ثلاثة أيام، احتفالاً بالحرية التي نالها.

منذئذ أخذت فيرناندا تنحو منحى سلبياً في اتجاهاتها. فطغت عليها ثياب الرهبنة القاتمة، وغمرت نفسها بالإيقونات العتيقة، وسيطر على

سلوكها غرور لا معنى له. بينما كانت بيترا كوتيس، المحظية، تزداد تألقاً وتتفجر شباباً متجدداً. فترتدي أجمل الثياب الفاخرة من الحرير الطبيعي، ويشع من عينيها بريق السعادة والعنفوان، كما اللهب المنبعث من عيني صبية غرة متوقدة ملحاح. وقد عاد إليها أورليانو الثاني بعنف من الفتوة شديد جديد. كما كان في العهد الأول، الذي لم تكن تحبه فيه لذاته، بل لأنها كانت تخلط بينه وبين أخيه التوأم. حتى كانت تظن أن الله قد منحها رجلاً في قوة اثنين.

وراجعهما الهوى بنزق أيامه الخوالي، فكانا كثيراً ما تلتقي عيونهما، حين يبدآن الطعام فما يلبث أن يصمت في كل منهما اللسان، وهما على المائدة، فيدعان الأطباق مغطاة، ويأويان إلى مخدعهما، حيث يكادان يموتان جوعاً ووجداً وحبّاً. وقد أعجب أورليانو الثاني بما شاهده لدى السيدات الفرنسيات، في زياراته القليلة لهنّ، فاشترى لبيترا كوتيس سريراً مجللاً بكلّة (ستارة)، كأنه سرير أميرة. وجلّلَ النوافذ بستائر مخملية، وغطى سقف الغرفة وجدرانها بمرايا من الكريستال الشفّاف.

وازدادت شراهة أورليانو الثاني، حتى غدا ذا بطنة متلافاً أكثر منه في أي زمن مضى. فكان القطار، القادم في الساعة الحادية عشرة من كل يوم، يحمل له صناديق من المشروبات الروحية، كالشمبانيا والبراندي. وكان عدد الصناديق في ازدياد مستمر. فكان إذا استلمها وعاد من المحطة، دعا إليه كل من صادفه في طريقه إلى وليمة مفاجئة، سواء أكان المدعو غريباً أم من أهل البلدة، معروفاً له أم مجهولاً، دون أي نوع من أنواع التمييز. حتى السيد براون نفسه، وهو المتقوقع على نفسه بعيداً عن الناس، والذي لم يكن يتكلم إلا اللغة الأجنبية، رضخ لإشارة مغرية من أورليانو الثاني مرات كثيرة. وكثيراً ما سكر في بيت بيترا كوتيس سكراً حتى الموت. وكثيراً ما كان يتصرف تصرفاً يدفع رعاته الألمان المتوحشين

إلى الرقص على الألحان التكساسية، وهو يدندن بها مصاحباً عزف الأكورديون. حتى إذا بلغت الحفلة أوجها، كان أورليانو الثاني يصرخ بأعلى صوته:

ـ كفى أيها البقر. . كفى، فإنّ الحياة قصيرة.

لم تكن حياة أورليانو قط أفضل مما صارت عليه الآن، ولا كان في حياته محبوباً إلى هذا الحدّ، كما لم يصل تناسل حيواناته إلى مثل الغزارة من التكاثر الذي وصل إليه. فقد كان يذبح في الولائم، التي لا حصر لها، عدداً كبيراً من رؤوس الماشية والخنازير والطيور، مما جعل أرض الدار موحلة سوداء قاتمة من كثرة الدم المسفوح، وتراكمت فيها البقايا، حتى لكأنها كومة عظام ونفايات، أو كأنها مزبلة تلقى فيها البقايا وسقط المتاع. وكثيراً ما كانوا مضطرين لتفجير أصابع الديناميت لإبعاد الطيور الجارحة الكاسرة، خشية أن تقتلع عيون المدعوين.

وازداد وزن أورليانو الثاني، بعد أن سمن وتضخّم، نتيجة لشهيته الهائلة التي لا تشبهها سوى شهية خوزيه أركاديو عندما عاد من رحلته حول العالم.

وانتشرت شهرته بالنهم اللا إنساني، واشتهر خبر كرمه، الذي لا سابق مثيلاً له بتجاوزه حدود المعقول، حتى تجاوز ذلك حدود إقليم المستنقعات (الماريجو). فتوافد إليه ذوو البطنة المعروفون بالنهم في طول الساحل وعرضه. وأقيمت عند بيترا كوتيس مباريات النهم، لاختبار القدرة الفائقة على احتمال كميات الأكل الهائلة، وشارك في ذلك كل المشهورين بالنهم في أنحاء البلاد. وبرز أورليانو الثاني، في المباريات، بطلاً لا يقارع ولا يغلب. حتى حلّ يوم السبت البائس، الذي ظهرت فيه (كاميلا ساجاستوم) وهي امرأة توتمية، عرفت في البلاد باسم (الفيلة). وقد استمرت المبارزة بينها وبينه من السبت حتى الثلاثاء صباحاً. فكان

www.iiilas.com/vb3 RAYAHEEN

العشاء في الساعات الأربع والعشرين الأولى لحم عجل مع البطاطا، والموز المقليّ، مضافاً إلى ذلك صندوق ونصف من الشمبانيا. وظن أوريليانو الثاني أنه قد انتصر. فقد كان أكثر حماسة وقوة من المرأة، خصمه العنيد، ولو أن أسلوبها أسلوب محترف. وقد يكون هذا هو السبب في أنها لم تثر الناس الذين احتشدوا في البيت، للمشاهدة، حتى ضاق بهم.

وكان أوريليانو الثاني، الذي أسكرته نشوة الظفر الظاهر، يلتهم الطعام بلا تمييز، بينما كانت (الفيلة) تقطع اللحم بحذق ومهارة كأنها جرّاح، وتأكل متأنية متلذذة. وقد كانت كبيرة الجثة هائلتها، ولكن نعومة الأنثى ورقتها تطغى على ضخامة جسدها. كانت جميلة الوجه، رقيقة اليدين ناعمتهما. وكانت شخصيتها ساحرة لا تقاوم، حتى إن أوريليانو الثاني قال بصوت خفيض لمن حوله إنه كان يفضل لو تجري المباراة بينه وبينها في السرير لا على المائدة. ولما رآها تفرغ من فخذ العجل دون أن تخرق قواعد الطعام الأصول، قال بشيء من الجدية، إن هذه الفيلة اللطيفة الرائعة المغرية التي لا تعرف الشبع، هي من بعض النواحي المرأة المثالية عنده. ولم يكن أوريليانو الثاني مخطئاً في تقديره. فقد كانت شهرتها، والقائلة بأنها آكلة جيف، دون أساس من الصحة، تسبقها أنى رحلت. فهي لم تكن ـ كما ورد عنها ـ ساحقة ثيران، ولم تكن ذات لحية، ولم تكن تمت إلى السيرك اليوناني بصلة، بل كانت مديرة لمدرسة غناء. وقد تعلمت طريقتها في الأكل وهي أم محترمة لعائلة، كانت تبحث لأولادها عن طريقة نظامية تمكنهم من الغذاء الجيد، دون استعمال للمثيرات الاصطناعية، بل بوساطة هدوء الذهن المطلق. وقد استندت نظريتها، التي برهن التطبيق العملي على صحتها، إلى أن الإنسان السويّ الطبيعي يستطيع أن يأكل حتى يغلبه التعب. وقد تخلت

عن بيتها وعن دروس الغناء لأسباب خلقية وأسباب رياضية، لتنازل رجلاً مشهوراً ببطنته ونهمه، ولا يعتمد على أية قواعد أو أنظمة مدروسة، وقد ملأت شهرته بذلك البلاد.

ومنذ اللحظة التي وقعت فيها عيناها على أوريليانو الثاني، أدركت أن معدته لا تقهر، وإنما الذي يمكن أن يغلبه هو طبعه. فقد أخذ في الليلة الأولى يضيع قواه وطاقته بالضحك والثرثرة، بينما المرأة ـ الفيلة تحافظ على هدوئها. وناما أربع ساعات. وعندما استيقظا، شرب كل منهما عصير خمسين برتقالة، وأربع كاسات كبيرة من القهوة، والتهم ثلاثين بيضة نيئة، وفي صباح اليوم التالي، وبعد سهر طويل، وبعد أن أتيا على خنزيرين كاملين، وقنو من الموز، واحتسيا أربعة صناديق من الشمبانيا، خيّل للمرأة الفيلة أن أوريليانو الثاني قد اكتشف، مصادفة، نهجها وطريقتها في الأكل، ولكن بطريقة عشوائية لا مبالية. ثم أدركت أنه أخطر مما كانت تقدّر. ومع ذلك شعر أوريليانو الثاني، عندما وضعت بيترا كوتيس ديكين مطبوخين من الحبش، أنه بات على وشك الإصابة بعسر الهضم، فقالت له:

ـ إذا كنت لا تستطيع، فلا تأكل المزيد. ولنخرج من المباراة متعادلين.

وقد كانت جادة في اقتراحها، لأنها أحست أنه لم يعد يستطيع ابتلاع لقمة أخرى. وأنبها ضميرها لشعورها بأنها تساهم في قتل خصمها.

ولكن أوريليانو الثاني فسّر اقتراحها بأنه نوع من التحدي الجديد، فالتهم قطعة كبيرة من ديك الحبش، متجاوزاً حدود قدرته العجيبة. فأغمي عليه وانكفأ على وجهه فوق المائدة، وقد وقع أنفه في طبق الطعام المليء ببقايا العظام والفضلات. ثم أخذ الزبد يخرج من فمه، كأنما هو كلب، تكاد تخنقه حشرجات النزع الأخير. ثم شعر كأن يدأ تدعّه، في غياهب الظلام الدامس، من علٍ نحو هوة لا قرار لها. ثم بدا له،

كومضة صحو أخيرة، كأنما الموت كان في انتظاره لدى سقوطه. وجاهد حتى استطاع أن يقول:

ـ خذوني إلى فيرناندا.

وظنّ رفاقه الذين حملوه إلى بيته أنه إنما كان ينفذ وعداً قطعه لزوجته، بألاّ يموت في سرير محظيّته.

دهنت بيترا كوتيس حذاءه اللامع المفضل لديه، والذي كان يحب أن يحتذيه في نعشه. وعندما كانت تبحث عمّن ينقله إليه في بيت فيرناندا، علمت أنه نجا من الخطر.

ثم استعاد صحته خلال بضعة أيام. فاحتفل، بعد خمسة عشر يوماً، بوليمة لا عهد لأحد بمثلها، فرحاً بخلاصه من الموت.

وظل يعيش مع بيترا كوتيس. وداوم، في الوقت ذاته، على زيارة فيرناندا يومياً، كما كان أحياناً، يتناول عندها طعام الغداء في البيت. وكأن قدره شاء أن يقلب له الأدوار في الحياة، حتى غدا عشيقاً لزوجته وزوجاً لمحظيته.

كان ذلك فترة استراحة لفيرناندا. فخلال حياة الإهمال المؤرقة التي كانت تحياها، كان الشيء الوحيد الذي يشغلها ويملأ وقتها هو دروس العزف على آلة الكلافسان الموسيقية خلال ساعات القيلولة، ثم التسلّي بالرسائل الواردة من ابنها وابنتها. ولم تكن رسائلها المطولة إليهما، مرة كل أسبوعين، لتنقل شيئاً من الواقع. فقد كانت تخفي عنهما عذابها. فلا تحدثهما عن كآبة البيت، الذي بات يتحول، تدريجاً، إلى مسكن شبيه بمسكن ذويها الكلاسيكي، رغم الأنوار التي كانت تضيء أزهار البيجونيا، والحرارة الخانقة عند الساعة الثانية من بعد الظهر، ورغم موجات الاحتفالات التي كانت تتناهى إلى البيت من الشارع العام.

كانت فيرناندا تغرق في عزلتها ووحدتها، تتجول في البيت، تلازمها

ثلاثة أشباح حية وطيف خوزيه أركاديو بوينديا الميت، الذي كان يجيء إليها، فيجلس في الصالة، نصف المضاءة، مصغياً في عبوس لعزفها على آلة الكلافسان الموسيقية.

أما العقيد أوريليانو بوينديا فبات ظلاً. فهو، منذ خروجه إلى العقيد جيرينيلدو ماركيز مقترحاً عليه إشعال حرب لا أمل فيها، بات لا يغادر مشغله، إلاّ ليبول تحت شجرة الكستناء. ولم يكن يقبل زيارة أحد، إلاّ الحلاق، الذي كان يأتيه مرة كل ثلاثة أسابيع. وكان يتناول وجبة الطعام الوحيدة التي تحملها إليه أورسولا. فلا يسأل عن نوع الطعام. ويتابع صنع الأسماك الذهبية الصغيرة بحرارة الماضي وحماسته. ولكنه كفّ عن بيعها منذ أن علم أن الناس لا يشترونها حلية، بل لأنها أثر من التاريخ.

وقد أشعل في الدار ناراً هائلة، وأحرق فيها لعب ريميديوس كلها، تلك اللعب التي كانت تزين بها غرفتها يوم زواجهما. وقد علمت أورسولا، وهي التي لم يكن يخفى عليها شيء مما يدور في البيت، ما كان يفعل ابنها، ولكنها لم تجد وسيلة تمكنها من ردّه عن قراره. فقالت له:

ـ لك قلب من حجر.

فأجابها قائلاً:

ـ ليست المسألة مسألة قلب. فقد امتلأت الغرفة بالعثّ.

وكانت أمارانتا ما تزال تحوك كفنها. ولم تدرك فيرناندا لماذا كانت تكتب الرسائل إلى ميمي، بل وترسل إليها الهدايا أحياناً، ولكن دون أن تذكر لها شيئاً عن خوزيه أركاديو، كأنها لا تريد لها أن تسمع عنه شيئاً. ولما استفسرت فيرناندا عن ذلك، بوساطة أورسولا، كان جواب أمارانتا:

ـ ستموت دون أن تعرف السبب.

وقد زرع هذا الجواب في قلب فيرناندا لغزاً لم تستطع قط أن تسبر كنهه.

كانت أمارانتا طويلة القامة، عريضة المنكبين، متكبرة معتزة بنفسها، ترتدي دائماً الملابس الفاخرة المحلاّة بالدانتيلا، وتحمل في شكلها وهيئتها غروراً يغالب السنين والذكريات الحزينة. فكأنها كانت تحمل على جبينها صليب الرفاة (الرماد) المعبر عن عذريتها. والواقع أنها كانت تحمله. ولكن في الرباط الأسود على يدها، فلا تنزعه في يقظتها ولا نومها. كانت تغسله وتكويه بنفسها. وتمضي سحابة يومها، وهي توشح كفنها، حتى ليخيل للمرء أنها كانت تعمل فيه طوال يومها، وتعمل فيه عندما يجن ليلها. وكأنها لم تكن تريد بذلك أن تخمد نار عزلتها ووحدتها، بل أن تؤججها.

وما كان يشغل بال فيرناندا في سني هجرها هو أن ميمي، عندما ستعود إلى البيت لقضاء عطلتها الأولى، لن تجد أباها أوريليانو الثاني في البيت. ولكن عسر الهضم الذي أصابه قد أطاح بمخاوفها. واتفق الأب والأم، عندما وصلت ميمي، على أن تفهم ميمي أن أوريليانو الثاني كان ما يزال زوجاً مثالياً، مواظباً على واجباته المنزلية، وعلى ألاّ تلحظ ابنتهما الكآبة التي كان البيت غارقاً فيها. فكان أوريليانو الثاني يقضي في العام شهرين، يكون خلالهما زوجاً مثالياً. يقيم الحفلات التي تقدم فيها البوظة والكعك (الجاتو)، وتشيع فيها الفرح تلك الطفلة اللعوب، التي كانت تضج بالحياة ولا سيما حينما تجلس للعزف على آلة الكلافسان الموسيقية. وكان واضحاً أنها لم ترث إلاّ القليل من طباع أمها، فكانت كأنها نسخة من أمارانتا، يوم كانت الأخيرة لا تعرف مرارة العيش، توزع المرح، بطيشها، في البيت، بحركات رقصها، وهي ما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرها. كان ذلك قبل أن يلتوي قلبها بهواها المكتوم

لبيترو كريسبي، فيغيره من النقيض إلى النقيض مرة واحدة وإلى الأبد.

ولكن ميمي كانت تختلف عن أمارانتا، وعن سائر أفراد الأسرة، بأنها لم يكن محكوماً عليها بقدر العزلة والوحدة. كانت منسجمة مع الناس والعالم من حولها، حتى عندما كانت تغلق على نفسها باب الصالة في الساعة الثانية من بعد الظهر، لتتدرب على آلة الكلافسان الموسيقية بشكل نظامي صارم. كانت تحب البيت، فتقضي العام وهي تحلم بصخب صويحباتها اللاتي كان يثيرهن وصولها في العطلة. ولم تكن بعيدة عن الولع بحفلات أبيها وكرمه المتلاف. وقد بدت عليها آثار الوراثة، بوضوح، عندما حلت العطلة الكبرى الثالثة. فقد وصلت ميمي إلى الدار بصحبة أربع راهبات، وستين واحدة من رفيقاتها في الصف، دعتهن لقضاء أسبوع معها عند أهلها، وحدها، دون أن تخبر أحداً بالأمر. فتأوهت فيرناندا قائلة :

ـ يا للهول، فهذه الطفلة متوحشة كأبيها.

واضطرت لاستعارة الأسرّة والأراجيح من الجيران، وأن تقدم طعام الوجبة الواحدة على تسع دفعات، وأن تنظم ساعات الدخول إلى الحمام. كما نجحت في استعارة أربعين كرسياً صغيراً، لكي لا تظل أولئك البنات يطفن، طوال النهار، ببزاتهن الزرقاء من مكان إلى آخر في الدار. وقد كانت تلك الدعوة فاشلة فشلاً ذريعاً، لأن التلميذات ما كنّ ينتهين من تناول طعام الفطور، حتى يبدأ تقديم وجبة الغداء. وهكذا دواليك حتى العشاء. فلم يقمن سوى برحلة واحدة إلى الغابة خلال الأسبوع بطوله. وما أن يحل المساء، حتى تشعر الراهبات بالإجهاد من كثرة العمل، فلا يستطعن حراكاً. أما البنات، اللواتي لم يكنّ ليعرفن التعب، فكنّ يطفن في فناء الدار، وهن يغنين مقاطع من أناشيدهن المدرسية، ضحلة المعاني. وقد كدن، ذات مرة، أن يوقعن أورسولا،

التي أصرت على أن تقوم بعمل ما نافع، ولا سيما حيث كان يكثر ازدحام البنات. وقد اضطربت الراهبات اضطراباً شديداً، في أحد الأيام، لأنهن شاهدن العقيد أوريليانو بويندیا يبول تحت شجرة الكستناء، دون أن يعير أي اهتمام للتلميذات في فناء الدار. وكادت أمارانتا تثير الفزع في الجميع، حين دخلت إحدى الراهبات إلى المطبخ، وكانت هي تملح الشورباء. فسألتها الراهبة عن ذلك المسحوق الأبيض الذي كانت ترشه بقبضة يدها على الطعام. فأجابت أمارانتا :

- زرنيخ.

وقد سببت البنات ازدحاماً هائلاً ليلة وصولهنّ، عندما حاولت كل منهن دخول الحمّام قبل أن تأوي إلى فراشها. فما انتهت أواخرهن من ذلك إلاّ مع ساعات الصباح الأولى. وعندها جلبت فيرناندا اثنين وسبعين إناء وضعتها في الغرف، فحلّت بذلك المشكلة الليلية. ولكنها أثارت بذلك مشكلة صباحية. . فقد بدأت الفتيات، منذ الفجر، يقفن صفاً طويلاً أمام بيت الخلاء، تحمل كل منهن إناءها بيدها، وتنتظر دورها لإفراغه. وقد أظهر معظمهن مقاومة شديدة لكل أنواع المصاعب. فكنّ يتنزّهن في البستان، في آخر ساعات اليوم، ما خلا بعضهن اللواتي بدت عليهن بعض ظواهر الحمّى، وتقيحت على جلودهن قرصات البعوض.

وعندما سافرت البنات، كانت أزهار الدار قد أتلفت، وتحطم الأثاث، وامتلأت الجدران بالرسوم والكتابات. وشعرت فيرناندا بالراحة لرحيلهن، وغفرت لهنّ كل صنوف التخريب. وأرجعت الأسرّة والكراسي لأصحابها، واحتفظت بالاثنين والسبعين إناء، فوضعتها في غرفة ملكيادس. وقد سميت تلك الغرفة، التي كانت مغلقة مهجورة، والتي كانت قديماً تدور حولها حياة البيت الروحية، غرفة الأواني. وقد كانت هذه التسمية، في نظر العقيد أوريليانو بويندیا، هي التسمية المناسبة

لغرفة ملكيادس، ذلك لأنه، بينما كان أفراد الأسرة ما يزالون مبهورين بسحر كون غرفة ملكيادس كانت معصومة من الغبار والدمار، كان هو يرى أنها قد استحالت إلى مكان للقمامة. وعلى كل حال، لم يكن يهمه أن يعرف الصحيح. ولم يكن ليعرف شيئاً عما آلت إليه الغرفة إلاّ لأن فيرناندا قد أزعجته بغدوها ورواحها، وسببت له الاضطراب في شغله، طوال عصر يوم كامل، وهي ترتب الأواني في تلك الغرفة.

في تلك الفترة ذاتها، عاد خوزيه أركاديو الثاني إلى الظهور في البيت من جديد. فقد مرّ أمام الشرفة دون أن يحيي أحداً من أهلها، ثم مضى في طريقه إلى المشغل لكي يتحدث إلى العقيد. وعلى الرغم من أن أورسولا لم تستطع أن تراه، فقد ميزته من صوت كعب حذائه، وعجبت لما تذكرته من الهوة التي كانت تفصله عن باقي أفراد العائلة، تلك الهوة، التي كانت تفصله حتى عن أخيه التوأم الذي كان يلهو معه، وهما صغيران، باختراع الحيل على الناس، كي يختلط عليهم أمرهما، أما الآن فلم تبق بينهما سمة مشتركة. فقد كان هو طويلاً نحيلاً، وقور الهيئة، دائم التفكير، حزيناً جاداً، كفارس عربيّ مسلم، على وجهه لمعة كئيبة من لون الخريف. وقد كان أكثر التوأمين شبهاً بأمهما سانتا صوفيا (التقية).

وقد لامت أورسولا نفسها، لأنها كانت تنساه أحياناً وهي تتحدث عن أفراد العائلة. ولكنها عندما أحست أنه في الدار، ولاحظت أن العقيد استقبله في مشغله، خلال ساعات عمله، عادت إلى ذكرياتها القديمة، تتفحصها. فاقتنعت بأنه، في فترة الطفولة، تبادل وأخاه شخصيتيهما، وأنه هو الذي كان يجب أن يدعى أوريليانو. ولم يكن أحد يعرف شيئاً عن حياته. فقد عرف عنه أنه، في وقت من الأوقات، لم يكن له بيت ثابت، وأنه كان يربي الديكة عند بيلار تيريزا، ويبيت عندها أحياناً.

والواقع أنه كان يقضي معظم لياليه في غرف السيدات الفرنسيات. فقد كان دائماً بعيد المزار، يعيش بلا عاطفة ولا طموح، كشهاب عابر في نظام أورسولا الشمسيّ.

والواقع أن خوزيه أركاديو الثاني لم يعد واحداً من أفراد العائلة. كما لم يكن يمت إلى أية عائلة أخرى بصلة، منذ ذلك الفجر البعيد الذي صحبه فيه العقيد جيرينيلدو ماركيز إلى الثكنة، لا لكي يشهد تنفيذ الإعدام، بل ليبقى ذلك محفوراً في ذاكرته ما دام على قيد الحياة. فلا ينسى الابتسامة الحزينة الساخرة على وجه ذلك الرجل الذي تطلق عليه النار تنفيذاً لحكم الإعدام. ولم تكن تلك أقدم ذكرياته، بل كانت الذكرى الوحيدة الباقية من حياة الطفولة. وكانت هناك ذكرى أخرى، هي صورة رجل عجوز، يلبس صداراً عتيقاً، وقبعة كجناحي غراب، يروي له قصصاً عن أشياء عجيبة، أمام نافذة لها إطار يبهر البصر بنوره. ولكنه لم يستطع تحديد زمن تلك الذكرى. كانت مشوشة مضطربة في ذهنه، يكاد لا يعلم عن تفاصيلها شيئاً. فهي مجردة من الحنين، على عكس صورة المحكوم بالإعدام، التي كانت تتحكم بتوجيه حياته فعلاً، وما تنفك تراجعه بين الحين والآخر، فتزداد وضوحاً في ذاكرته، كلما ازدادت إيغالاً في الماضي، فكأن مرور الزمن يقربها منه، ولا يزيدها إلاّ وضوحاً.

وأرادت أورسولا أن تستغلّ وجود خوزيه أركاديو الثاني، علّه يخرج العقيد أوريليانو بوينديا من عزلته. فكانت تقول له :

ـ ادفعه للخروج والذهاب إلى السينما. حتى ولو كانت الأفلام سيئة، لعله يتنفس الهواء النقيّ.

ولكنها ما لبثت أن اكتشفت أنه، هو نفسه، أقلّ استجابة لرجائها من العقيد نفسه، وأنهما كليهما محصّنان بدرع لا تنفذ منه العواطف. ولم

تستطع أن تعرف قط، كما لم يستطع أحد أن يعرف، عمّا كان يتحدثان في خلواتهما الطويلة في المشغل. ولكنها أدركت أنهما الوحيدان بين أفراد العائلة اللذان يشتركان في مشاربهما، وتجمعهما صلة من نوع خاص.

والحق أن خوزيه أركاديو الثاني نفسه لم يكن قادراً على إخراج العقيد من عزلته. وقد نفد صبره في أسبوع غزوة البنات، وزعم أن العث قد سطا على غرفة عرسه على الرغم من إحراق لعب ريميديوس الحبيبة. فعلّق أرجوحته في المشغل، ولم يعد يغادره إلاّ لقضاء حاجة في البستان. وما كانت أورسولا لتستطيع التحدث معه، ولو في أتفه الموضوعات. وكانت تعرف أنه لا يلقي نظرة على ما تقدمه له من طعام. فقد كان يترك الطعام على طرف طاولة العمل، إلى أن ينتهي من صنع سمكة صغيرة . ولم يكن يعنيه في شيء سواء أتجمدت الشورباء أم برد اللحم. وقد ازداد قسوة منذ رفض العقيد جيرينيلدو ماركيز مساعدته في بدء حرب الشيخوخة التي كان ينوي إعلانها. فتقوقع على نفسه، حتى اعتبرته الأسرة كأنه قد مات. ولم تبد منه أية بادرة، تدل على ردّ فعل إنساني، حتى حلّ ذلك اليوم، الحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، حين خرج إلى باب الدار يشهد مرور السيرك في الشارع العام. ولم يكن ذلك اليوم، ليختلف، عند العقيد أوريليانو بوينديا، عن غيره من سائر أيام السنة أو السنوات الأخيرة.

استيقظ في الساعة الخامسة صباحاً على صوت الضفادع والصراصير الصادر من الناحية الأخرى من السور. وكان الرذاذ يتساقط حينئذ، كما كانت الحال منذ السبت الماضي. ولم يكن بحاجة لسماع حفيفه الخافت على أوراق شجر البستان لكي يعرف بسقوطه. فقد شعر به عندما أحس بالبرد الذي ينفذ إلى عظامه. وكان، حسب عادته، يتلفع بدثاره

الصوفيّ، وقد ارتدى سرواله القطنيّ الطويل، الذي ما انفك يلبسه، حتى بات يسميه لقدمه بـ «السروال المحافظ». وقد لبس بنطاله الضيق ذاك دون أن يزرر عراه، ولم يضع في ياقة قميصه الزر الذهبي الذي اعتاد أن يضعه دائماً. فقد كان يريد أن يستحم. وغطّى رأسه بدثاره كأنه رداء حمام، ومسّد شاربيه المتهدلين بأصابعه، ثم مضى إلى البستان كي يبول.

كان الوقت ما يزال مبكراً، قبل أن تبزغ الشمس، حتى إن خوزيه أركاديو بويندیا(١) كان ما يزال، على عادته، نائماً تحت سعف النخيل التي مزقها المطر. فلم يره، كما لم يره من قبل هناك، ولم يسمع العبارة الغامضة التي وجهها شبح أبيه، لدى استيقاظه، عندما فاجأه رذاذ البول الدافىء المتساقط على حذائه. فأرجأ الاستحمام، لا لأنه شعر بالبرد والرطوبة، بل بسبب ضباب تشرين الأول (أكتوبر) الذي أثقل على صدره. وفي طريقه عائداً إلى المشغل، لاحظ رائحة الفتيلة المحترقة التي كانت سانتا صوفيا (التقية) تستعملها لإشعال الفرن. فانتظر في المطبخ حتى تسخن القهوة، فيأخذ منها فنجاناً بلا سكر. وسألته سانتا صوفيا عن أي يوم كان ذلك من الأسبوع. فقال لها إنه الثلاثاء، الحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر). وتأمل تلك المرأة الصابرة، التي قد بهت رونقها، ولكن انعكاس اللهب على وجهها جعلها تتلألأ كالذهب، وهي تبدو في تلك اللحظة، أكثر من أي وقت مضى عليها، وكأنها غير موجودة. فتذكر أنه في الحادي عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وهو في أوج حربه، أيقظه من نومه شعور مفاجىء غريب بأن المرأة النائمة معه قد ماتت. وكانت ميتة فعلاً. وهو تاريخ لا ينساه، لأنها هي الأخرى سألته، قبل ساعة من نومها أي يوم كان ذلك اليوم.

ورغم هذه الذكرى، لم يدرك إلى أي مدى تخلّت عنه النبوءات.

(١) والد العقيد أوريليانو بويندیا الميت.

وجعل يتأمل ويفكر، بينما القهوة تغلي على النار، بتلك المرأة، دون أي ذرة من حنين، بل مجرد حب استطلاع. تلك المرأة التي لم يعرف اسمها ولم يرَ وجهها، لأنها انسلت إلى أرجوحته، وهي تتعثر في الظلام. ولم يستطع، في زحمة النسوة اللاتي كنّ يتسللن إلى أرجوحته وحياته على تلك الصورة، أن يتذكر أنها هي كادت تغرق بدموعها، وهي في نشوة اللقاء معه، وأنها أقسمت، قبل ساعة من موتها، أنها ستحبه ما دامت على قيد الحياة. ولم يعد إلى التفكير فيها من جديد، بل أقلع عن التفكير في أية امرأة أخرى، ودخل مشغله، حاملاً فنجان قهوته، والبخار يتصاعد منه. وأشعل النور كي يبدأ بصنع سمكاته الصغيرات التي كان يضعها في طاس من التوتياء. كانت عندها سبع عشرة سمكة. فقد أخذ، منذ قرّر ألا يبيعها، يصنع سمكتين في اليوم. حتى إذا وصل العدد الخمس والعشرين، صهرها في البوتقة، كي يعاود صنعها من جديد.

واستغرق في عمله الصباحي، حتى لم يعد إلى التفكير بشيء. فلم ينتبه إلى اشتداد هطول المطر عند الساعة العاشرة، ولم يلحظ مرور شخص سريعاً بباب المشغل وهو يصيح طالباً إغلاق الأبواب قبل أن يغرق البيت. بل لم يكن يشعر بوجوده ذاته، حتى دخلت عليه أورسولا، وهي تحمل له طعام الغداء، وأطفأت النور، قائلة :

ـ يا لهذا المطر !!. فأجاب :

ـ إنه تشرين الأول (أكتوبر).

قال ذلك دون أن يرفع عينيه عن سمكة اليوم الصغيرة الأولى، لأنه كان يرصّع مكان عينيها بالياقوت. ولم يحتس الشورباء إلاّ حين انتهى من آخر لمسة على سمكته، وضمها إلى رفيقاتها في الطاس، ثم أكل قطعة اللحم المطبوخة مع البصل ببطء شديد، وأكل الأرز الأبيض، وقطع الموز المقلية، وقد وضعت جميعاً في طبق واحد.

كانت شهيته لا تتبدل بحسب الأحداث، سيئة كانت أو حسنة. واستولى عليه، بعد الغداء، شعور بالخمول والكسل. وكان قد إعتمد، نتيجة لوساوسه العلمية، أن يدع ساعتين بعد الأكل للراحة والهضم، فلا يعمل خلالهما، ولا يقرأ، ولا يستحم. وقد سيطر عليه ذلك الاعتقاد، منذ زمن طويل، حتى إنه كثيراً ما أخرّ بعض العمليات العسكرية، كي لا يعرّض جنوده لعسر الهضم نفسه.

استلقى في أرجوحته، وراح يتشاغل بنزع الصملاخ من أذنيه برأس سكينه. وغلبه النوم بعد مضي بضع دقائق. وقد رأى، في ما يرى النائم، أنه يدخل بيتاً خالياً، جدرانه بيضاء. وقد هيمن عليه شعور بأنه أول إنسيّ يدخل إليه. وتذكر في حلمه أنه رأى الحلم نفسه في الليلة الماضية، بل في ليال كثيرة خلال السنوات الأخيرة. وتبيّن أن الصورة كانت تمّحي من ذاكرته عندما يستيقظ من نومه. ولا بد أن يكون في تكرار هذا الحلم شيء خاص به، وهو أنه لا يمكن أن يتذكره إلاّ حين يراه.

والواقع أنّ ما حصل هو أن العقيد أوريليانو بوينديا، كان قد ظن أنه أغفى طويلاً، عندما طرق الحلاق بابه، مع أنه لم يغف سوى ثوان قليلة، لم تتسع لأن يرى فيها حلماً طويلاً. فقال للحلاق:

ليس اليوم. فليكن يوم الجمعة.

وكان قد مضى على ذقنه دون حلاقة فترة ثلاثة أيام، فبدت وقد تناثرت فيها شعرات بيضاء. ولكنه لم ير من الضروري أن يحلق ذقنه اليوم، ما دام سوف يقص شعره يوم الجمعة. والأفضل أن يفعل الشيئين معاً. وقد أدّت به تلك القيلولة غير المرغوب فيها إلى أن بات ينضح عرقاً. فأيقظ سائل عرقه اللزج الندوب المتخلفة من بثور إبطيه. ولم تظهر الشمس رغم توقف المطر عن السقوط. وتجشأ العقيد أوريليانو بوينديا

تجشؤاً عالياً، فصعدت من معدته إلى فمه حموضة الشورباء. فكانت شبيهة بردة فعل عضوية، دفعته إلى وضع دثاره على كتفيه، وإلى الذهاب إلى بيت الخلاء، حيث مكث أكثر مما ينبغي، قابعاً قرب الرائحة المتخمرة التي كانت تتصاعد من الوعاء الخشبي، إلى أن تبيّن بفعل نظام عمله الرتيب أنّ ساعة العمل قد أزفت.

وتذكر خلال مكوثه الطويل أنه في يوم الثلاثاء، وأن خوزيه أركاديو الثاني لم يأت إلى المشغل، لأنه كان يوم دفع الأجور في شركة الموز. وقادته الذاكرة، كما كانت تفعل خلال السنوات الأخيرة، دون انتباه أو وعي منه، إلى التفكير بالحرب. فتذكر أن العقيد جيرينيلدو ماركيز كان قد وعده، يوماً، أن يقدم له حصاناً أنجم (ذا نجمة بيضاء في جبينه)، ثم لم يعد يسمع منه أي حديث عن الموضوع منذ ذلك الحين.

وراح ينتقل من قصة إلى أخرى، ومن ذكرى إلى أخرى، يستعيدها، دون أن يتوقف عندها أو يعلق عليها بأي حكم. فقد اعتاد أن يفكر ببرود، لعلّ الذكريات التي لا حيلة له فيها لا تلامس شغاف قلبه وحساسياته، لم يكن يقوى على تركيز ذهنه على شيء. ولما عاد إلى المشغل، شعر أن جوّه أصبح جافاً، فقرر أن يستحم، ولكنه وجد أن أمارانتا قد سبقته إلى ذلك. فبدأ بصنع سمكة يومه الثانية. ولما كان على وشك لحم ذنبها بها، برزت الشمس من خلف الغيوم، ساطعة قوية، حتى بدا كأن بريقها أحدث صوتاً شبيهاً بصوت قارب يمخر عباب اليمّ. وغصّ الجو، الذي غسله المطر على مدى ثلاثة أيام، بالنمل الطيار. وأحسّ بالحاجة للتبوّل، ولكنه حاول أن يمسك نفسه ريثما يفرغ من جلي السمكة الصغيرة. وفي الساعة الرابعة وعشر دقائق، غادر المشغل إلى البستان، فتناهى إلى أذنيه صدى آلات موسيقية نحاسية بعيدة، وقعقعة صندوق كبير، وأصوات أطفال فرحين. ولأول مرة منذ شبابه، استسلم

لما يسمع بملء إرادته، فوقع في المصيدة التي نصبها له الحنين.

وعادت إليه ذكرى عصر ذلك اليوم، يوم الغجر، عندما صحبه أبوه كي يشهد الجليد. وتركت سانتا صوفيا (التقية) ما كانت مشغولة فيه من شؤون المطبخ، وأسرعت إلى باب الدار. وصاحت بملء صوتها :

ـ إنه السيرك.

وبدلاً من أن يتجه العقيد أوريليانو بويندِيا إلى شجرة الكستناء، عدّل، هو الآخر، طريقه وذهب إلى باب الدار المطل على الشارع العام. واختلط بالمشاهدين المستطلعين الذين كانوا يتأملون العرض. فرأى امرأة على عنق الفيل، وقد ارتدت ثياباً محلاّة كلها بالذهب. وشاهد جملاً كئيباً. ورأى كذلك فتاة هولندية تضبط إيقاع الموسيقى بمغرفة ومقلاة. وشاهد المهرجين، في آخر العرض، يقفزون عالياً في الهواء. كما أدرك وحدته وعزلته البائستين، بعد أن مرّ العرض، واختفى كل شيء، حتى لم يبق أمامه، مما يمكن أن يرى، سوى امتداد الشارع الطويل المنير، والجوّ الذي كان يعج بالنمال الطائرة، وسوى بعض المستطلعين الذين كانوا يحملقون في فراغ عدم اليقين.

وعندما عاد نحو شجرة الكستناء، وهو يفكر في السيرك، حاول جهده أن يستمر في التفكير فيه وهو يبول، لكنه لم يستطع الاحتفاظ بشريط ذكرياته . فأنزل رأسه بين كتفيه، كما يفعل صوص صغير، حيث ظل بلا حراك دون أن يبرح جبينه جذع شجرة الكستناء. ولم يدر بأمره أحد من أفراد الأسرة، حتى صباح اليوم التالي، في الساعة الحادية عشرة، عندما خرجت سانتا صوفيا (التقية)، إلى مؤخرة البستان، لإلقاء النفايات، فراع انتباهها خفق أجنحة النسور الهابطة.

(١٤)

توافقت عطلة ميمي الأخيرة مع فترة الحداد على العقيد أوريليانو بويندِيا. وقد أغلق باب الدار، ولم يعد فيها مجال للحفلات، ولم يعد يتكلم أحد في الدار إلاّ همساً. وكان على الجالسين على مائدة الطعام أن يكونوا صامتين، وأن يعيدوا صلاة السبحة ثلاث مرات في اليوم. وقد صار للتمرينات على آلة الكلافسان الموسيقية نغم حزين.

وعلى الرغم من أن فيرناندا كانت تكنّ عداء خفياً للعقيد، إلاّ أنّ وقار الاحتفال، الذي أقامته الحكومة لذكرى عدوها الميت، قد أثر فيها كثيراً، حتى إنها هي التي فرضت على البيت حداداً صارماً.

وكان أوريليانو الثاني قد رجع إلى البيت كي ينام فيه خلال عطلة ابنته، ميمي، حسب الاتفاق. ولكن يبدو أن فيرناندا قد استعادت حقوق الزوجة، لأن ميمي عندما وصلت في عطلة السنة التالية، وجدت لها أختاً، كانت حديثة الولادة. وقد عمّدت، على الرغم من رأي أمها، باسم أمارانتا أورسولا.

وقد أنهت ميمي دورتها الدراسية. وكان خير برهان على صدق الشهادة التي نالتها، كعازفة جوقة على آلة الكلافسان الموسيقية، عزفها بمهارة ألحاناً شعبية رائعة من القرن السابع عشر، في الحفلة التي أقيمت بمناسبة تخرجها، وصادفت نهاية فترة الحداد. كان عزفها يدل على استحقاقها الإجازة في الموسيقى. وقد كانت الفتاة ذات شخصية نادرة،

حظيت بإعجاب المدعوين أكثر مما حظي بذلك فنها. كان يبدو عليها أن طبعها الطفولي الخفيف لا يؤهلها لأداء أية فعالية جادة، ولكنها ما إن كانت تجلس إلى آلة الكلافسان حتى تتبدل إلى فتاة مختلفة كلياً، ذات مظهر يوحي ببلوغها المبكر بإمارات غاية في الوضوح. وقد ظلت كذلك طوال حياتها.

والواقع أن ميمي لم تكن ذات موهبة جلية، ولكنها استطاعت أن تنجح في الحصول على أحسن الدرجات بجهدها المتواصل. كي لا تخالف أوامر أمها. ولو أن أمها كانت قد فرضت عليها أية مهنة أخرى لما كانت النتيجة لتختلف قليلاً أو كثيراً. فقد كانت ميمي، منذ طفولتها، ترزح تحت شدة فيرناندا، وعادتها في إتخاذ القرارات المتطرفة. ولم تكن على استعداد لمقاومة عنادها، ولو أدى ذلك بها إلى ما هو أشق من دروس الكلافسان.

وقد خُيّل لميمي، يوم حفلة التخرج، أنّ الشهادة، بحروفها القوطية، وحروفها التزيينية الكبيرة، قد حررتها من عهد قطعته تهذيباً لا خضوعاً. وظنت، في نفسها، أن فيرناندا لن تعود بعد إلى تلك الآلة الموسيقية، التي صارت الراهبات أنفسهن يعتبرنها من آثار المتاحف. ولكنها ما لبثت أن اكتشفت خطأها. فلم تعد أمها تكتفي بتنويم نصف سكان البلدة في الحفلات الموسيقية، التي كانت تقيمها في الصالة، ولا بسهرات الإحسان، والاحتفالات المدرسية، والمهرجانات الوطنية التي تنظم في ماكوندو، بل تجاوزت ذلك إلى دعوة كل قادم جديد كانت تفترض أنه يستطيع تقدير مواهب ابنتها.

ولكن، بعد موت العقيد أوريليانو بويندياً، وإعلان فترة الحداد في الدار، استطاعت ميمي أن تغلق آلة الكلافسان الموسيقية القديمة، وأن تخبىء المفتاح في إحدى الخزائن. ومنذئذ لم تكلف فيرناندا نفسها عناء

البحث عنه أو السؤال عمن أضاعه.

لقد احتملت ميمي كل تلك المظاهر بصبر صوفي غير محدود، مثلما احتملت فترة الدراسة. ولكن ثمن ذلك كان حريتها. وقد رضيت فيرناندا عن تهذيبها، وسرّها الإعجاب الذي كان يبعثه فنها في الناس، فلم تعد تعارض في قدوم صويحباتها إلى الدار، ولا في أن تقضي ما بعد الظهر في الغابة، أو أن ترافق أوريليانو الثاني، أباها، إلى السينما، أو لزيارة النساء اللواتي كانت تثق بهن، شريطة ألاّ يكون فيلم السينما مما نهى عنه الأب أنطونيو إيزابيل من على منبر الكنيسة في الصلاة.

وفي تلك اللحظات المريحة، كانت تتبدّى أذواق ميمي وملامح زهوها. فقد كانت سعادتها تتناقض مع النظام الصارم. كانت تنطلق في الحفلات الصاخبة، وفي أحاديث الحب وقصصه، وفي الاجتماعات السرية الخاصة بين الصواحب، حيث يتعلمن التدخين، ويتحدثن عن أمور الرجال وأشيائهم. وصادف مرة أن شططن فجاوزن المعقول، إذ شربن ثلاث زجاجات من مشروب الروم الكحولي، ثم تعرّين ورحن يقارنّ بين أجزاء أجسادهن. ولن تنسى ميمي، طوال عمرها، تلك الأمسية، حين عادت إلى البيت، وهي تمضغ عيدان السوس، دون أن يلحظ أحد تغير سحنتها. فجلست إلى المائدة، وكانت هناك أمارانتا وفيرناندا تتناولان الطعام دون أن تكلم إحداهما الأخرى.

وكانت قد أمضت ساعتين رهيبتين في غرفة نوم صاحبة لها، تبكي وتضحك. ومن وراء الأزمة اكتشفت ما كان ينقصها من الشجاعة، كي تهرب من المدرسة الداخلية، وتقول لأمها، بطريقة أو بأخرى، أنها تستطيع أن تضع آلة الكلافسان في شرجها.

كانت ميمي جالسة إلى طرف المائدة، تتناول حساء الدجاج، وهو ينزل إلى معدتها كأنه أكسير منعش، عندما اكتشفت أمارانتا وفيرناندا وما

حولهما من هالة الواقع التي تفضحهما. وقد بذلت جهداً كبيراً، وهي تحاول كبح عنان نفسها، كي لا تواجههما بما كانتا تنطويان عليه من الصنعة والتكلف، وفقر الروح وجنون العظمة.

كانت تعرف، منذ عطلتها الثانية، أن أباها كان لا يعيش في البيت إلاّ حرصاً على المظاهر. ونتيجة لمعرفتها بفيرناندا، أمها، وبعد أن قابلت بيترا كوتيس بنفسها، توصلت إلى أن أباها كان على حق. ولكم كانت، هي نفسها، تفضل أن تكون ابنة الحظية. وكانت ميمي ما تزال تحت تأثير نشوة الخمر، ففكرت بالفضيحة التي يمكن أن تثيرها لو أنها عبّرت بصوت عال عما كان يدور في خلدها. وقد بدا أثر ذلك كله عليها، رضاً جلياً، حتى إنّ فيرناندا لاحظت ما كانت عليه، فسألتها :

ـ ما بالك؟.

فأجابت ميمي :

ـ لا شيء. كنت فقط أتبيّن مقدار حبي لكما كليكما.

وقد ذعرت أمارانتا من شحنة الحقد الواضحة في إعلان ميمي. واضطربت فيرناندا، حتى خيّل لها أنها سوف تُجن عندما استفاقت ميمي في منتصف الليل ورأسها يكاد يتشظى من شدة الألم. ثم تقيأت سيلاً أصفر كاد يخنقها، فأعطتها أمها زجاجة من زيت الكاستور، وغطت لها بطنها بلصقات، وغمرت رأسها بأكياس الثلج، وفرضت عليها الحمية، وعزلتها عزلاً تاماً خلال خمسة أيام. ثم استدعت لها طبيباً فرنسياً جديداً غريب الأطوار.

وقرر الطبيب، بعد فحص دام ساعتين، قراراً خلاصته المبهمة السديمية أنها مصابة بأحد الأمراض النسائية الغريبة. وتخلت ميمي عن شجاعتها، وانتابتها حالة يأس حزينة، ولم يكن أمامها إلاّ أن تلوذ بالصبر تحت وطأة الألم. ولكن أورسولا، وهي، على الرغم من عماها التام، كانت ما

تزال نشيطة الإدراك، وقد توصلت إلى التشخيص الدقيق لحالة ميمي، فقالت :

ـ يبدو لي أن ما حدث لها هو ما يحدث للسكارى. ولكنها ما لبثت أن طردت تلك الفكرة من ذهنها، ولامت نفسها لمجرد التفكير بهذه الأفكار التافهة.

وشعر أوريليانو الثاني بتأنيب الضمير عندما رأى ميمي، بما كانت عليه من ضعف. وعاهد نفسه على الاهتمام بها في المستقبل. وهكذا، نشأت بين الأب وابنته علاقة صداقة صريحة مرحة، حررته من وحدة الحفلات المرة القاسية، وحررتها من وصاية فيرناندا، التي كادت تتحول إلى أزمة عائلية لا مناص منها. وأرجأ أوريليانو الثاني جميع التزاماته، لكي يواظب على صحبة ميمي، ويرافقها إلى السينما أو السيرك. وكرّس لها معظم أوقات فراغه.

وكان أوريليانو الثاني قد بدأ في الفترة الأخيرة ينزعج من بدانته وسمنته المتزايدة، حتى بات لا يقوى على ربط شريط حذائه. ومالت مبالغته في التلذذ بالأطعمة المختلفة إلى جعل طبعه نزقاً ضيقاً. ولكن اكتشافه لابنته أعاد إليه مرحه القديم، وأبعدته صحبته لها، تدريجاً، عن متابعة لذاته. ثم بلغت ميمي العمر الذي تتفتح فيه أزهار الفتاة.

ولم تكن ميمي جميلة، كما لم تكن أمارانتا في صباها. ولكنها كانت مرحة جذابة، تؤثر في الآخرين تأثيراً جميلاً، لأنها كانت بسيطة غير معقدة. وكانت طريقة تفكيرها حديثة تصدم وقار فيرناندا وحشمتها التقليديين. ولكنها، مع ذلك، كانت تجد في أوريليانو الثاني خير سند لها. فهو الذي قرر أن تغادر غرفة النوم التي كانت لها منذ طفولتها، بما فيها من تماثيل لقديسين لهم عيون متوحشة تزكي فيها مخاوف الشباب. وأثّث لها غرفة جعل لها فيها سريراً كسرير الملكة. ومرآة زينة عريضة،

وستائر مخملية، دون أن يدري أنه كان ينشىء نسخة عن غرفة بيترا كوتيس.

وكان كريماً مع ميمي، فلا يعرف كم كان يعطيها، لسبب بسيط، وهو أنها تأخذ من جيوبه ما تريد. وكان يحيطها بكل أدوات الزينة ومستحضراتها التي كانت تصل إلى مخازن شركة الموز. وحفلت غرفة ميمي بقطع من حجر الخفاف لتنعيم أظافيرها، ومجعّدات الشعر، وفراشي الأسنان ومبيّضاتها، والقطرات التي تفتّر العينين، والكثير من مواد التعطير والتجميل والدهون الجديدة.

ودخلت فيرناندا غرفة ميمي، فصعقت عندما اكتشفت أن زاوية تزيين ابنتها ومرآة زينتها شبيهتان تماماً بما لدى السيدات الفرنسيات. وكانت فيرناندا، في تلك الأيام، توزع وقتها بين طفلتها الصغيرة أمارانتا أورسولا، التي كانت عليلة، وبين المراسلات المؤثرة مع أطباء غير معروفين. ولما تبينت التفاهم القائم بين الأب وابنته، بذلت كل جهدها حتى انتزعت منه وعداً بألاّ يصحبها إلى بيت بيترا كوتيس، ولا شيء غير ذلك.

ولم يكن لذلك الوعد والطلب أي معنى، لأن المحظية كانت تشعر بأشد القلق من تلك الصحبة الوطيدة بين عشيقها وابنته، حتى باتت لا تطيق ذكرها. فقد كان هناك نوع من الخوف الغامض يعذبها، فكأن غريزتها جعلتها تدرك أن إشارة من إصبع ميمي الصغيرة كانت كفيلة بأن تمكنها من الوصول إلى كل ما لم تستطعه فيرناندا. فتخسر بذلك حباً خالته دائماً ما دامت على وجه الحياة.

وجد أورليانو الثاني نفسه، للمرة الأولى، يتعرض لعناد بيترا كوتيس، ولاحتمال سموم سخريتها. حتى بات يساوره خوف شديد من أن تردّ صناديقه، التي جلبها من بيته، إلى بيتها. ولم يحدث

ذلك، لأنه ليس من امرأة كانت قادرة على معرفة رجل مثلما عرفت بيترا كوتيس عشيقها. وقد كانت تدرك أن الصناديق ينبغي أن تبقى حيث هي، لأن أورليانو الثاني كان لا يكره شيئاً كرهه لنقل الأمتعة، الذي كان يعقّد حياته. وهكذا بقيت الصناديق في أماكنها. وعزمت بيترا كوتيس على استرداد الزوج، فشحذت سلاحها الوحيد الذي لا تستطيع ابنته استخدامه معه.

ولم يكن حتى لذلك الجهد أي معنى، لأن ميمي لم تكن معنيّة بالتدخل في شؤون أبيها. ولو أنها كانت مهتمّة بذلك لكان تدخلها لمصلحة محظيته. وهي لا تكاد تجد من الوقت ما يكفيها لنفسها، فكيف تضيعه في إزعاج الآخرين. فقد كانت تكنس غرفتها بنفسها، وتسوّي سريرها كما علمتها الراهبات. وكانت، في الصباح، تهتم بثيابها، فتجلس في الشرفة للتطريز، أو تخيط مستعملة آلة أمارانتا القديمة ذات اليد للخياطة. وكانت، عندما يقيل الآخرون، تتدرب ساعتين على آلة الكلافسان الموسيقية. فكانت بهذه التضحية اليومية منها تريح نفس فيرناندا وأعصابها. ولهذا السبب ذاته، ظلت تعزف في المناسبات، والاحتفالات الكنسية، والأمسيات المدرسية، وإن كان الطلب عليها قد قلّ في الآونة الأخيرة. وكانت، بعد الظهر، تتزين قليلاً، وتلبس ثياباً بسيطة، وتحتذي حذاءها الصلب، وتذهب لزيارة صديقاتها، إذا لم يكن لديها ارتباط مع أبيها، فتبقى معهن حتى وقت العشاء. وعندئذ يصل أورليانو الثاني، إلاّ في حالات نادرة، فيصطحبها إلى السينما.

كانت من صويحبات ميمي ثلاث فتيات أميركيات، تمكّن من خرق السياج المكهرب الذي كان يحيط بمجمّع سكنهن، وأنشأن علاقات صداقة مع بنات ماكوندو. ومن هؤلاء باتريسيا براون. وقد فتح السيد براون أبواب بيته لميمي، اعترافاً منه بكرم الأورليانو الثاني وحسن ضيافته

له، في الحفلات الوحيدة التي يقبل الأميركيون الاختلاط فيها بالسكان الوطنيين. ولما علمت فيرناندا بالأمر نسيت طفلتها أمارانتا أورسولا والأطباء الخفيين، وأقامت الدنيا وأقعدتها. وكان مما قالته لميمي :

- فكري بما يمكن أن يفكر فيه العقيد في قبره. وكانت ترجو بذلك أن تدعمها أورسولا في موقفها. ولكن العجوز العمياء رأت، خلافاً لما توقعه الآخرون، ألاّ مانع من ذهاب ميمي إلى الحفلات الراقصة، وإقامة علائق الصداقة مع من كنّ في عمرها من الأميركيات، ما دامت تحافظ على عاداتها السلوكية، ولا تتحول عن مذهبها إلى البروتستانتية.

وأدركت ميمي رأي أم جدها الأول تماماً، فكانت في الصباح التالي لكل حفلة تستيقظ أبكر من عادتها، وتذهب إلى الكنيسة للصلاة. ولكن فيرناندا اشتدت في معارضتها للأمر، حتى اليوم الذي أبلغتها فيه ميمي أنّ الأميركيين يحبون أن يستمعوا لعزفها على آلة الكلافسان الموسيقية. عندها، وعندها فقط، استسلمت فيرناندا. واقتضى ذلك أن تخرج آلة الكلافسان من البيت، وتنقل إلى بيت السيد براون. وهناك أثارت العازفة الشابة عاصفة من التصفيق والإعجاب الصادق، والحماسة والتهاني. ومنذئذ صارت تدعى، خلال حفلات الرقص، إلى السباحة يوم الأحد في المسبح، وإلى الغداء مرة كل يوم جمعة.

وتعلمت ميمي السباحة حتى غدت بطلة فيها، وتعلمت لعب التنس، واعتادت أكل لحم خنزير فرجينيا مع شرحات الأناناس. وبين حفلات الرقص والسباحة والتنس، وجدت ميمي نفسها مندمجة في اللغة الإنجليزية. واشتدت حماسة أوريليانو الثاني وإعجابه بنجاح ابنته وتقدمها، فاشترى لها، من بائع متجول، موسوعة (انسيكلوبيديا) إنجليزية، من ستة أجزاء، حافلة باللوحات الملونة. فعكفت ميمي على المطالعة فيها في ساعات فراغها. وحلت القراءة لديها محل الاهتمام

الذي كانت تبديه، مع صويحباتها، بقصص الحب وتجاربه وخبراته في خلواتهن الصغيرة. ولم يكن ذلك لأنه نظام فرض عليها، بل لأنها فقدت الاهتمام بمناقشة تلك الأمور التي كانت شائعة بين الناس عامة. وتذكرت حادثة سكرها مع صديقاتها، ونظرت إليها كمغامرة طفولية مضحكة. وروتها لأبيها، الذي رأى فيها حادثة هزلية مسلية أضحكته أكثر مما أضحكتها. وقال لها وهو يمزج كلامه بالضحك :

- آه، لو علمت أمك بذلك.

كما كان يردد دائماً، كلما أخبرها سراً من أسراره بشيء من الثقة. وقد جعلها تعده بأن تفضي إليه بأمر أول علاقة غرامية لها. فأخبرته بأنها تستلطف شاباً أحمر الشعر، أميركياً شمالياً، كان قد جاء لقضاء عطلته مع والديه. فقال لها أوريليانو الثاني ضاحكاً :

- يا للهول، لو علمت أمك بذلك !!

ولكن ميمي أضافت أن الفتى قد عاد إلى بلده، ولا تعرف عنه شيئاً.

كانت رجاحة عقل ميمي تؤمن هدوء البيت. وبناء على ذلك، جعل أوريليانو الثاني يخصص وقتاً أطول لبيترا كوتيس. ولم يكن يضيع أية فرصة لإقامة الحفلات، ولو أن روحه وبدنه لم يعودا على ما كانا عليه، فيما مضى، من القوة، مما كان يقلل من فرص استمتاعه كالسابق. وكان، في مثل هذه المناسبات، يخرج الأكورديون من مخبئه، على الرغم من أن بعض أجزائه كانت قد بليت، فربطها بأشرطة حذائه.

وكانت أمارانتا ما تزال في البيت، تطرز كفنها الذي لا ينتهي. واستسلمت أورسولا للعجز، وهو يدفعها إلى قاع الظلمات، حيث لم تعد ترى سوى شبح خوزيه أركاديو بوينديا تحت شجرة الكستناء. وكانت فيرناندا توطد سلطاتها شيئاً فشيئاً. وكانت رسائلها الشهرية إلى ابنها، خوزيه أركاديو، لا تنقل شيئاً من الكذب. ولكنها تابعت معه

التكتم بشأن رسائلها إلى الأطباء المجهولين، الذي شخصوا وجود ورم جيبي خبيث في معيها الغليظ، وكانوا يهيئونها لإجراء عملية تخاطرية(١).

صار من الممكن القول إن السلام والسعادة قد سادا وسيخيمان لمدة طويلة في بيت آل بوينديا المتعب، لولا موت أمارانتا المفاجيء، وما جلبه معه من هياج وإقلاق جديدين. فلم يكن أحد ينتظر ذلك الحدث. وعلى الرغم من أنها كانت في شيخوختها معزولة عن الناس، فكانت ما تزال تبدو قوية حازمة مستقيمة القوام، لها صحة كأنما هي الصخر الصلد، كما كانت دائماً.

لم يدر أحد ماذا كان يدور في فكرها، منذ أصيل ذلك اليوم الذي رفضت فيه نهائياً طلب العقيد جيرينيلدو ماركيز، الذي جاء يخطب ودّها، ثم حبست نفسها تبكي وحدها. وظلت على تلك الحال حتى استنفدت من مآقيها الدموع. وهي لم تبك يوم صعود ريميديوس الجميلة، ولا يوم مذبحة الأوريليانو، ولا حتى يوم موت العقيد أوريليانو بوينديا، وهو الذي ما أحبت أحداً مثلما أحبته في الدنيا. وقد كان حبها له حباً لم تتبينه هي نفسها إلا حينما شاهدت جثمانه تحت شجرة الكستناء. فساعدت في رفع جسده، وألبسته حلة المحارب، وزيّنته، وحلقت له لحيته، وسرّحت شعره، ودهنت شاربه وعقصته بعناية، لم يعرفها هو في سنوات عزه ومجده. ولم يعتقد أحد أنّ ذلك كله كان بدافع الحب. فقد اعتاد الناس من أمارانتا خبرتها الرفيعة بطقوس الموت والجنائز. ومما كان يغيظ فيرناندا فيها أنها كانت تجهل علائق الإيمان الكاثوليكي بالحياة، ولا تعرف منه إلاّ ما كان ذا صلة بالموت. فكأنه لم يكن عندها ديناً ، بل احتفال جنائزي .

(١) Telepathy : التخاطر وهو اتصال عقل بآخر بطريقة ما خارجه عن المألوف .

والواقع أن أمارانتا كانت غارقة في حبائل ذكرياتها، فلا يتسع وقتها لفهم دقائق المنطق الديني . وقد بلغت الآن أرذل العمر ، وما يزال حنينها وشوقها على أشدهما. فكانت كلما سمعت شيئاً من ألحان بيترو كريسبي، شعرت بالحاجة إلى البكاء، تماماً كما كانت تشعر زمان شبابها، حتى لكأن السنين مرّت بها دون تأثير، وكذلك كانت حال الخبرات والآلام. وقد كانت ملفات الموسيقى التي ألقت بها، بنفسها، فوق المزبلة بدعوى تعفنها بالرطوبة، ما تزال تستأثر بذاكرتها، كأنما تدق في رأسها بمطارق صغيرة لا تتوقف. وقد حاولت أن تطمس كل تلك الذكريات بعاطفتها الموحلة الغامضة، التي سمحت لنفسها بها، إزاء ابن أخيها أوريليانو خوزيه. كما حاولت أن تلوذ بحماية العقيد جيرينيلدو ماركيز القوية الهادئة، ولكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح. ولم ينجح في كبت ذكرياتها حتى لجوؤها إلى أمر تتمثل فيه دورة الشيخوخة اليائسة، حين كانت تغسّل خوزيه أركاديو الصغير، قبل سفره إلى الدير بثلاث سنين، فجعلت تعبث به وتداعبه بطريقة لا تداعب بها الجدة حفيدها، بل بالطريقة التي تتصرف فيها امرأة مع رجل، كطريقة السيدات الفرنسيات التي كان الناس يتحدثون عنها. وهي الطريقة نفسها التي طالما اشتهت أن تفعلها مع بيترو كريسبي، عندما كانت في الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها، وخصوصاً عندما شاهدته يرقص ببنطاله الضيق، ويلوح بعصاه السحرية ضابطاً إيقاع الموسيقى.

كانت أمارانتا تتعذب أحياناً من أنها تخلف وراءها البؤس والشقاء، وتتألم أحياناً أخرى بسبب وخزها أصابعها بالإبرة. وكانت كلما ازدادت ألماً ازدادت غضباً. فانكفأت إلى المرارة من الأحزان التي خلفها ذلك الحب العطر، المنتن، الذي كان يسحبها وراءه حتى الموت.

وكما كان العقيد أوريليانو بوينديا يفكر في الحرب، ولا يستطيع أن

ينساها، كذلك كانت أمارانتا لا تستطيع إلاّ أن تفكر في روبيكا. وبينما استطاع أخوها أن يطمس بعض ذكرياته، لم تجد هي سبيلاً إلاّ لإذكاء نار ذكرياتها. فكانت تدعو الله، في السنين الأخيرة، أن يجنبها أمراً واحداً، هو عقاب الموت قبل روبيكا، وكانت كلما مرّت أمام بيتها، وشاهدت تمادي الخراب فيه، شعرت بالسعادة لظنها أن الله يستجيب لدعائها. وقد كانت ذات يوم تخيط، وقت الأصيل، في الشرفة، جاءها الخبر اليقين، يطمئنها إلى أنها سوف تسمع قريباً نبأ موت روبيكا، بينما هي جالسة في مكانها، وفي وضعها ذاته، وفي ضوء الأشعة نفسها. ومكثت في مكانها جالسة تنتظر كمن ينتظر رسالة. ومرّ بها وقت كانت خلاله تقطع أزرار ثيابها كي تخيطها من جديد، كي لا يجعل التوقف عن العمل انتظارها طويلاً ممضاً.

ولم يلحظ أحد في الدار أن أمارانتا بدأت منذ ذلك اليوم تحوك كفناً جميلاً لروبيكا. وعندما روى لها، أوريليانو تريست (الحزين)، فيما بعد، كيف تبدّلت حال روبيكا، فبدت شبحاً تفسّخ جلده، ولم يبق على جمجمته سوى بقايا خصل قليلة من الشعر، لم تستغرب لأن تلك الصورة التي وصفها تشبه تلك التي كانت تتخيلها منذ زمن. وكانت قد عزمت على أن تحفظ جثمان روبيكا. وأن تخفي تجاعيد وجهها وتغضناته بالدهون، وأن تضع لها شعراً مستعاراً من تماثيل القديسين. لقد قررت أن تجمل جثمانها، وأن تضعها في كفن من الكتان، في نعش مبطن بالقطيفة له إطار أرجواني، ثم تنقله في جنازة مهيبة رائعة، لتضعه من بعد تحت تصرف دود القبور.

لقد وضعت الخطة بحقد ليس له مثيل، حتى إنها أصيبت بالقشعريرة عندما سألت نفسها ما إذا كانت تستطيع أن تضع مثلها عن حب. ولكنها لم تسمح لمثل تلك الأفكار بأن تجعلها تتخبط في خطتها أو تتراجع عنها.

بل عمدت، عوضاً عن ذلك، إلى الاهتمام بتفاصيل الخطة ودقائقها، حتى إنها لم تصبح اختصاصية، وحسب، بل فنانة حقيقية في طقوس الموت وتقاليد الجنائز.

أما الأمر الوحيد الذي لم تفكر فيه، ولم يخطر لها على بال، في خطتها الرهيبة فهو أنها يمكن أن تموت هي قبل روبيكا. على الرغم من دعائها وصلاتها للرب. وكان ذلك ما حدث فعلاً. ولكنها، في لحظاتها الأخيرة، لم تشعر بالإحباط، بل، على العكس من ذلك، شعرت بالتحرر والخلاص من كل مراراتها، لأن الموت قد منحها امتياز الإعلان عن نفسه لها قبل موعده بسنين. فقد رأته في عصر يوم شديد الحرارة، يخيط معها في الشرفة، بعد رحيل ميمي إلى المدرسة بقليل. وقد رأته وعرفته، لأنه كان على هيئة امرأة ترتدي ثياباً زرقاء، ولها شعر طويل، وتبدو بهيئة عتيقة، وتشبه إلى حد ما صورة بيلار تيريزا، في العهد الذي كانت تعمل فيه في المطبخ. وقد صادف، في مرات كثيرة، أن كانت فيرناندا حاضرة عند ذاك، ولكنها لم ترها قط، على الرغم من حقيقة كونها واقعية. وذات طبيعة إنسانية، حتى إنها طلبت من أمارانتا، مرة، أن تعبر لها الخيط في إبرتها.

ولم يحدد لها الموت موعد موتها، ولا ما إذا ساعة وفاتها سوف تحين قبل ساعة وفاة روبيكا. ولكنه أعلمها بأن تبدأ بإعداد كفنها منذ اليوم السادس من شهر نيسان (أبريل) التالي. وأذن لها بأن يكون الكفن بالصورة التي تختارها زينة وجمالاً، وأن تعنى بتفصيله عنايتها بتفصيل كفن روبيكا. وأخبرها، أيضاً، بأن موتها سوف يكون دون ألم ولا تعب ولا مرارة، وسوف يحدث عند غروب شمس اليوم الذي تفرغ فيه من خياطة كفنها.

واجتهدت أمارانتا أن تطيل الزمن ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

فأوصت على خيوط من الكتان في منتهى الدقة . وغزلت الخيوط بنفسها. وأسرفت في العناية بالعملية الأخيرة، حتى جعلتها تدوم أربع سنوات. بدأت بعدها بعملية التطريز. وبالقدر الذي كانت تقترب فيه العملية من نهايتها، كان إدراكها يزداد بأن المعجزة وحدها يمكن أن تطيل أمد عملها إلى ما بعد موت ريبيكا. ولكن تفكيرها منحها نوعاً من الهدوء الذي كانت تحتاجه، لعلها توطن النفس على قبول ذلك الاحتمال. وعندها أدركت معنى حلقة الأسماك الذهبية الصغيرة المنحوسة المفرغة، التي تقوقع فيها العقيد أوريليانو بوينديا. فتوقف العالم على ظاهر جلدها، بينما تحرر باطنها من المرارة كلها.

وقد تألمت أمارانتا طويلاً، حتى تجلّى لها ذلك الكشف. كان باستطاعتها، من قبل، أن تنقي ذكرياتها، وتعيد بناء عالمها تحت شمس أخرى، فتستعيد، دون أن تصاب بالقشعريرة، رائحة الخزامى المسائية لبيترو كريسبي، وتتحرر ريبيكا من العذاب الذي تصطلي به، لا عن حب ولا عن حقد، بل نتيجة للإدراك العميق غير المحدود لأبعاد الوحدة.

لم تضطرب للحقد الذي لمحته، ذات مساء، في عبارة ميمي، ظناً منها أنها تعنيها، بل لأنها اكتشفت، فجأة، بأن شبابها يعود إلى صورة أخرى، لا تختلف براءة عن صورتها هي. فهي تشبهها أيضاً في أن الضغينة أفسدتها. ولكنها صممت، بكل قواها، على أن تتبع قدرها، فلا تتعذب نتيجة لإيمانها بأن كل عودة إلى الماضي مستحيلة، وبأن تقويم الماضي مستحيل. وبات هدفها الوحيد أن تكمل كفنها، بدلاً من تأخيره بتفاصيل لا لزوم لها، كما كانت تفعل في البداية. فأسرعت بالعمل. وقبل أسبوع من الموعد الذي حسبت أنها ستصنع فيه آخر غرزة، في ليلة الرابع من شباط (فبراير)، ودون أن تعلن عن الدوافع والأسباب، أوحت لميمي أن تعلن عن موعد حفلة عزف على آلة الكلافسان الموسيقية، تنظم

في اليوم التالي لذلك التاريخ. ولكن الفتاة لم تصغ لها. وعندها بدأت أمارانتا تبحث عن طريقة تؤخر بها الموضوع لثمان وأربعين ساعة. وقد حسبت أن الموت قد استجاب لرغبتها لأن عاصفة قد ثارت في ليلة الرابع من شباط (فبراير)، فحطمت محطة الكهرباء.

ولكنها في اليوم التالي، وفي الساعة الثامنة صباحاً، خاطت آخر غرزة، في كفنها، الذي بدا كأجمل قطعة فنية صنعتها امرأة. ثم أعلنت، دون أي حزن أو تمثيل، أنها سوف تموت مع غروب الشمس. ولم تكتف بإعلام أفراد الأسرة بذلك، بل أخبرت البلدة بكاملها، ذلك أن أمارانتا كانت تظهر أنها بذلك إنما تصلح سلوكها السابق، في حياة الدناءة التي عاشتها. فهي الآن تقدم خدمة أخيرة للناس، معتقدة أنها أفضل من يؤديها، وهي أن تنقل الرسائل إلى الموتى.

وقبل أن ينتصف النهار، كان قد شاع في كل أرجاء ماكوندو أن أمارانتا بوينديا سوف ترحل عن هذه الدنيا مع غروب الشمس، وأنها سوف تحمل معها بريد الموت. فما حانت الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم، حتى كان في قاعة البيت صندوق كبير مملوء بالرسائل. أما الذين آثروا عدم الكتابة فقد حملوا أمارانتا رسائل شفوية، سجلتها في دفتر الملاحظات، ذاكرة مع كل رسالة اسم المرسل إليه وتاريخ وفاته. وكانت تخاطب أصحاب الرسائل، بهدوء قائلة لهم :

ـ لا تقلقوا. فأول عمل سأقوم به عندما أصل إلى هناك هو البحث عن صاحب الرسالة، ونقل رسالتكم إليه. وكان ذلك كله يبدو على شكل تمثيلية هزلية ساخرة، ولم يبد على أمارانتا أثر للقلق ولا شيء من الألم. كل ما بدا عليها أنها كانت تقوم بواجب أحبته، فأعاد إليها ذلك بعضاً من شبابها.

فقد ظلت قامتها مستوية رشيقة. ولولا نتوء وجنتيها، بشيء من

القسوة، ولولا فقدانها بعض أسنانها، لكانت هيئتها تعكس سناً أصغر من سنها الحقيقية بكثير.

لقد حرصت على أن توضع الرسائل في صندوق محكم الإغلاق، مطليّ ومختوم، وأمرت بأن يوضع في قبرها بطريقة تجعله في منأى عن الرطوبة. وفي الصباح، زارها النجار، الذي أخذ قياساتها لصنع النعش، بينما كانت منتصبة في قاعة الاستقبال وكأنما الأمر لخياطة ثوب جديد. وقد عادت إليها ديناميتها القديمة، وانتعش نشاطها، في ساعاتها الأخيرة، ، حتى حسبت فيرناندا أنها إنما كانت تسخر من الناس.

أما أورسولا فلم تشك قط في أن أمارانتا قد جاءها النذير بالموت، فقد عرفت، من تجاربها وخبرتها، أنّ آل بوينديا لا يموتون من مرض. ولكنها خشيت، عندما كثرت الرسائل، أن يدفنها الناس حية، في حماستهم وغلوائهم. لعلّ رسائلهم تصل إلى ذويهم بسرعة. ولهذا طالبت بإخلاء البيت بإصرار. وراحت تصيح بالداخلين المتطفلين ولكنها لم تفلح في إخلاء البيت حتى الرابعة من بعد الظهر. وفي تلك الساعة، فرغت أمارانتا من توزيع ثيابها على الفقراء، ولم تترك فوق نعشها الخشبي غير المكتمل سوى غيار واحد تبدل به ثيابها والحذاء المخملي البسيط الذي اختارت أن تحتذيه في الموت. وقد اهتمت بهذا الأمر الأخير، لأنها تذكرت أنهم اضطروا لشراء حذاء جديد للعقيد أوريليانو بوينديا عند موته ،لأنه لم يكن يملك ما يحتذيه غير الحذاء الذي يلبسه في مشغله .

وقبل الساعة الخامسة بقليل، وصل أوريليانو الثاني، ليصطحب ميمي إلى الحفلة الموسيقية. ففوجىء عندما رأى الدار وكأنها تستعد لعملية الدفن. فقد كانت أمارانتا تبدو، في تلك اللحظة، أكثر الناس حيوية وصفاء ، حتى اتسع لها الوقت لمحاولة اقتلاع ثاليلها . واستأذنها أوريليانو الثاني وميمي وودعاها، وهما يضحكان، ووعداها بأن يقيما حفلة كبرى

يوم السبت القادم، بمناسبة قيامتها.

وتناهت الأخبار إلى الأب أنطونيو إيزابيل بأنّ أمارانتا ستحمل الرسائل إلى الموتى، فحضر في الساعة الخامسة تماماً. ومعه القربان المقدس. وانتظر نحو ربع ساعة ريثما تخرج من ستموت من موضع الاستحمام. ولكنه عندما رآها تخرج إليه بقميص نوم من القطيفة، وقد أسدلت شعرها على كتفيها، حسب الخوري العجوز المسكين أن القوم إنما كانوا يهزؤون به. فأعاد صبي الجوقة من حيث أتى. ولكنه فكّر في أن ينتهز المناسبة، فيجعل أمارانتا تعترف الآن، بعد أن رفضت الاعتراف طوال عشرين عاماً. ولكنها اكتفت بالقول بأنها ليست بحاجة لأي عون روحي ما دام وجدانها نظيفاً.

وغضبت فيرناندا، وتساءلت بصوت عال، وكأنها أرادت أن يسمعها الآخرون، عما تكون الخطيئة المخيفة التي ارتكبتها أمارانتا حتى تفضل الموت بخسةٍ ورجسٍ على عار الاعتراف. وعند ذلك استلقت أمارانتا، وجعلت أمها، أورسولا، تقدم الدليل العلني على أنها تموت عذراء. فصاحت أورسولا بصوت تسمعه فيرناندا، قائلة :

ـ دفعاً للشبهة والوهم عند أي من الناس، إنّ أمارانتا بوينديا تغادر هذا العالم كما جاءت إليه.

لم تنهض أمارانتا بعد ذلك من رقدتها. ظلت مضطجعة على الأرائك كأنها مريضة فعلاً. ضفرت شعرها الطويل جدائل لفتها حول أذنيها، تماماً كما أمرها الموت أن تفعل قبل أن تحل في النعش. وطلبت من أورسولا مرآة، وشاهدت وجهها للمرة الأولى بعد نيّف وأربعين عاماً. فرأت وجهاً قد غيّره العمر وبدّلته المعاناة. وعجبت لمقدار الشبه بين وجهها والصورة الذهنية التي كانت له في خيالها. ثم أدركت أورسولا، من الصمت الذي خيّم على غرفة النوم، أنّ الظلام قد حلّ، فخاطبت

أمارانتا برجاء قائلة :

ـ ودّعي فيرناندا. فدقيقة من الصلح والتصافي خير من عمر من الصداقة.

فأجابت أمارانتا :

ـ لم يعد لذلك نفع الآن.

لم يسع ميمي إلاّ أن تفكر بها عندما أضيئت الأنوار على المسرح المعدّ، وبدأت القسم الثاني من البرنامج. وعند منتصف القطعة الموسيقية، اقترب شخص منها، وهمس في أذنها الخبر، فتوقفت الحفلة. واضطر أوريليانو الثاني إلى أن يدفع الناس، ليشق طريقه بينهم. حتى إذا وصل شاهد جثمان البتول العجوز، عجفاء، قد تبدّل لونها، وما يزال الرباط الأسود على يدها، وقد لُفّت بكفنها الرائع الجمال. وكانت مسجّاة في قاعة الجلوس، بجانب صندوق الرسائل.

لم تنهض أورسولا من سريرها ثانية بعد انقضاء الليالي التسع حداداً على أمارانتا. وكانت سانتا صوفيا (التقية) تعنى بها فتأتيها بوجبات الطعام إلى غرفة نومها، وبالماء المعطر لتغتسل به، كما كانت تطلعها على آخر الأخبار في ماكوندو. وكان أوريليانو الثاني يزورها، حاملاً إليها الثياب. فتضعها إلى جانب سريرها، مع الأشياء التي تلزمها في حياتها اليومية، حتى استطاعت، خلال فترة قصيرة أن تكوّن لنفسها عالماً خاصاً بها في متناول يدها. واستطاعت أن تستثير محبتها الشديدة في أمارانتا أورسولا الصغيرة، التي كانت تشبهها إلى حدّ كبير، والتي علمتها القراءة.

كان وضوح ذهن أورسولا، مع مهارتها في قضاء حاجاتها، يجعل الآخرين يعتقدون أن أعباء عمر المئة عام قد هدمت كيانها، فضعف بصرها، ولكنّ أحداً لم يظن للحظة واحدة، أنها كانت عمياء تماماً.

وكانت الحال التي بلغتها تمنحها متسعاً من الوقت، والهدوء، والصمت الداخلي، يمكنها من مراقبة حياة البيت. فكانت أول من تنبه إلى حزن ميمي الصامت. وقد قالت لها مرة :

ـ تعالي إليّ. فما دمنا وحيدتين الآن، أرجو أن تعترفي لهذه العجوز المسكينة بما يزعجك.

ولكن ميمي تملصت من الحديث بضحكة قصيرة. ولم تلحّ عليها أورسولا، ولكن ظنونها كانت صحيحة، لأن ميمي لم تعد إلى زيارتها. كانت تشعر أنها تتهيأ للخروج قبل أن يحين موعده، وأنها لا تستطيع الهدوء، لحظة واحدة، في انتظار الموعد الذي تخرج فيه، وأنها كانت تقضي ليالي بحالها وهي تتقلب في فراشها في الغرفة المجاورة، وأن الحفيف الصادر عن طيران فراشة واحدة كان كافياً لتأريقها. وسمعتها ذات يوم تعلن عن خروجها من البيت للذهاب إلى أبيها، أوريليانو الثاني. وعجبت أورسولا لضعف ذاكرة فيرناندا وتفكيرها، عندما لم تشك في الأمر حين وصل زوجها إلى البيت يسأل عن ابنته. فقد كان واضحاً أنّ ميمي كانت واقعة في دوّامة من المشكلات والأسرار، تفضح ذلك كله المواعيد السريعة، والقلق الواضح غير المكتوم، وقد برز ذلك كله قبيل المساء الذي قلبت فيه فيرناندا البيت رأساً على عقب، لأنها شاهدت ميمي تقبل رجلاً في السينما.

كانت ميمي منطوية على ذاتها، ووصل بها الأمر إلى الحد الذي اتهمت به أورسولا بالوشاية بها. والواقع أنها هي التي وشت بنفسها. فقد كانت، في الفترة الأخيرة، تخلف وراءها من الآثار الدالة على سلوكها ما يلفت أنظار الغافلين. ولم تتأخر فيرناندا، هذه المرة، في اكتشاف أمرها إلاّ لأنها كانت منهمكة بعلاقاتها مع الأطباء المجهولين، وعلى الرغم من ذلك، لاحظت صمت ابنتها العميق، وارتعاشاتها

www.liilas.com/vb3

المفاجئة، ونزوات غضبها وتناقضاتها الكثيرة.

بدأت فيرناندا تراقب ابنتها مراقبة سرية شديدة. وسمحت لها بالذهاب إلى بيوت صويحباتها القديمات، وساعدتها في ارتداء ملابسها لحفلات السبت الساهرة. وقررت ألا توجه إليها أي سؤال يحرجها. ثم تجمعت لديها أدلة كثيرة تبين أن ميمي كانت تفعل غير ما كانت تزعم. ولكنها لم تبح بشكوكها، وانتظرت أن تحين الفرصة المناسبة لذلك. ففي أحد الأيام ذكرت ميمي أنها ذاهبة إلى السينما مع أبيها، ولكن فيرناندا سرعان ما سمعت، بعد ذهاب ميمي، أصوات الانفجارات، التي تعبّر عن الاحتفال، صادرة من ناحية بيت بيترا كوتيس، وتناهت إليها موسيقى أكورديون أوريليانو الثاني المعروفة تماماً. وعندها ارتدت ثيابها، وذهبت إلى السينما. ولدى دخولها تعرّفت إلى ابنتها على الرغم من الظلام المخيم على المقاعد. واستثارها الشعور بتحوّل ظنها إلى يقين، استثارة عالية، حالت دون تمييزها الرجل الذي كان يقبل ابنتها. ولكنها سمعت صوته الراجف وميزته من بين قهقهات الجمهور وصياحهم الصاخب. فقد سمعته يقول لميمي:

ـ آسف يا حبيبتي.

فانتزعت ميمي من مكانها، دون أن تقول لها كلمة واحدة، وقادتها، وهي تتعثر بعارها وخجلها، عبر شارع الأتراك المزدحم بالناس والحافل بالضجيج، حتى البيت، حيث أدخلتها غرفة نومها وأقفلت الباب عليها.

وفي اليوم التالي، وفي حوالي الساعة السادسة من بعد الظهر، سمعت فيرناندا صوت الرجل نفسه، وقد جاء يزورها. كان فتى برونزيّ اللون، له نظرة عبوس قاتمة، ما كانت لتستغربها لو عرفت الغجر. وكانت له هيئة تغري أية امرأة. ولو كان قلبها أقلّ تحجراً، لأغراها

وأوقعها في الحبائل التي أوقع فيها ابنتها. كان يرتدي بزة من كتان قديم، وقد تراكمت على حذائه طبقات من الدهان الأبيض، ويحمل بيده قبعة عريضة من قش، اشتراها يوم السبت الماضي.

لم يعرف في حياته الماضية، وربما لن يعرف في مستقبل عمره، خوفاً كذلك الذي شعر به في تلك الساعة. ولكنه احتفظ برباطة جأشه، وسيطر على أعصابه، فظلّ في منأى من الازدراء.

كان يبدو أصيل اللياقة لولا بعض العجف والشظف البادي على يديه، والتآكل في أظافيره، نتيجة للعمل الذي كان يزاوله. وكان كافياً لفيرناندا أن تلمحه سريعاً حتى تدرك أنه عامل يدوي. وقد عرفت أنه كان يرتدي أفضل ما لديه من ثياب يوم الأحد النظيفة. ولكن جرب شركة الموز لا بد أن يكون قد أكل جلده. لم تعطه فرصة للكلام، ولم تمكنه من عبور عتبة الباب، الذي أغلقته سريعاً لأن الفراش الأصفر كان قد صار أفواجاً تزدحم قرب الباب تهمّ بالدخول. وقالت له:

ـ «ابتعد من هنا. فليس لك شأن لدى الناس المحترمين». كان يدعى موريسيو بابيلونيا. ولد ونشأ في ماكوندو. يعمل ميكانيكياً في شركة الموز. قابلته ميمي مصادفة حين ذهبت، في أصيل أحد الأيام، مع باتريسيا براون، كي تجلبا السيارة للتنزه في الغابة القريبة. وصادف أن كان السائق مريضاً، وكلف هو بقيادة السيارة بهما. ويومها حققت ميمي رغبتها بالجلوس قريباً من مقود السيارة، لتشهد، عن كثب، كيف تعمل وتسير. وقد قام موريسيو بابيلونيا بما لم يقم به السائق الأصيل، فعرّفها بما كانت تريد أن تعرف. وقد جرى كل ذلك في الفترة التي كانت فيها ميمي تتردد على بيت السيد براون. وكان الناس يرون في قيادة النساء للسيارات عملاً غير لائق. ولذلك قنعت ميمي بالمعرفة النظرية. وانقضت بعد ذلك بضعة أشهر دون أن ترى فيها موريسيو بابيلونيا.

ولكنها كانت، فيما بعد، تستعيد جمال رجولته، وكيف أثّر ذلك فيها في أثناء النزهة. ولم يكن فيه ما ينفّر سوى خشونة يديه، وقد تحدثت إلى باتريسيا براون، في وقت لاحق، عن ضيقها بتطرفه في الشعور بالثقة بنفسه حتى درجة العجرفة.

وفي المرة الأولى، بعد ذلك، التي صحبت فيها أباها إلى السينما، وكان ذلك يوم سبت، رأت موريسيو بابيلونيا يجلس قريباً من مكانهما. وقد بدا نظيف الثياب. وقد لاحظت أنه لم يكن يهتم بمتابعة الفيلم، بل يدأب على الالتفات إليها بين الحين والآخر. وكأنه لم يكن يقصد رؤيتها وحسب، بل أن تلحظ أنه كان مهتماً بها. وأزعجها منه سلوكه الفظ ذاك. وفي آخر الفيلم تقدم موريسيو بابيلونيا من أوريليانو الثاني فحياه. وقد استنتجت ميمي من ذلك أن بينهما معرفة. والواقع أنه كان قد سبق لموريسيو بابيلونيا أن اشتغل عند أوريليانو تريست (الحزين)، في بداية العمل بالإنشاءات الكهربائية. وقد لاحظت كذلك أن الشاب كان يخاطب أباها مخاطبة من هو أرفع منه مقاماً، أو الموظف لصاحب العمل. وقد بددت هذه الحقيقة الكراهية التي تكنها له بسبب تعجرفه وتعاليه.

ولم تتح لهما فرصة الاجتماع وحدهما، ولا أن يتبادلا من الكلام ما يتجاوز تحية الصباح أو المساء، حتى كانت تلك الليلة التي رأت فيها، في منامها، أنه ينقذها من الغرق، دون أن تشعر تجاهه بالعرفان بالجميل، بل بالحنق والغضب. فكأنها شعرت بأنها قد منحته فرصة كان ينتظرها، بينما كانت تبذل جهدها، بعكس ذلك، لتجنب كل من يهتم بها من الرجال جميعاً وليس موريسيو بابيلونيا تحديداً.

ولذلك اشتدّ سخطها، ولكنها بدلاً من أن تزداد كراهية له، باتت رغبتها في رؤيته لا تقاوم، ونفد صبرها خلال ذلك الأسبوع. حتى إذا

حلّ يوم السبت، بلغت رغبتها تلك حدّ الجموح. وقد بذلت جهوداً جبارة كي لا يلحظ موريسيو بابيلونيا خفقان قلبها، الذي كاد يبرح صدرها، تعاني من خليط من الشعور بالغبطة واللذة والحنق. وتجرأ موريسيو بابيلونيا، للمرّة الأولى، فضم يدها بيده. ولكنها استطاعت بعد نزهة قصيرة أن تتخلص من ذلك الشعور الذي كان يسيطر عليها. ولكن نوبتها سرعان ما تحولت إلى نوع من الرضا الحادّ، عندما لاحظت أن يده كانت كيدها نديّة متعرقة وباردة. وقد أدركت، في تلك الليلة، أنها لن تستريح لحظة واحدة قبل أن تبيّن لموريسيو بابيلونيا عدم نفع طموحه. وهكذا قضت الأسبوع بطوله تقلب ذلك القلق وتلك الرغبة في رأسها. ولجأت إلى كل صنوف الحيل كي تصحبها باتريسيا، مرة أخرى، لإحضار السيارة. وفي آخر الأمر، استعانت بالأميركي الشمالي ـ الأحمر الشعر، الذي كان قد جاء في تلك الأيام إلى ماكوندو، لقضاء العطلة. فزعمت أنها كانت تريد معرفة أنواع السيارات الجديدة. فاصطحبها إلى المرآب. ولكن ميمي ما إن رأت موريسيو بابيلونيا حتى توصلت إلى لزوم التوقف عن خداع الذات. وتبيّنت أنها في الواقع قد بلغت درجة من التوتر لا تستطيع معها أن تكبح رغبتها في أن تخلو به. ولكن اقتناعها بأنه أدرك هذا الأمر، وبدا كأنه متيقن منه عندما رآها قادمة، أغاظها حتى الحنق. قالت ميمي :

ـ جئت لأرى الأصناف الجديدة.

فقال لها :

ـ ذلك عذر جميل.

وأدركت ميمي أنه كان يختال بغروره وحمّى كبريائه، فشرعت تبحث عن طريقة تهينه بها. ولكنه لم يدع لها فرصة لذلك، إذ قال لها بصوت خفيض :

- لا تنزعجي. فليست هذه هي المرة الأولى التي تُجنُّ فيها امرأة برجل.

فشعرت بالهزيمة، حتى إنها غادرت المرآب دون أن ترى أصناف السيارات الجديدة. وأمضت ليلة طويلة، من المساء حتى الصباح، وهي تتقلب في فراشها، وتذرف دموع الثورة والغضب.

لقد بدا لها الشاب الأميركي الأحمر الشعر، والذي كانت قد بدأت تهتم به فعلاً، كأنه لم يكن سوى طفل ما يزال في قماطه. وعندها لاحظت أنّ الفراشات الصفراء كانت تسبق موريسيو بابيلونيا فتبشر بقدومه. لقد رأت تلك الفراشات، من قبل، فوق مرآب تصليح السيارات. وظنت حينذاك أن رائحة الدهان كانت هي التي تجذبها. وقد رأت تلك الفراشات تحوم حول رأسها قبل أن تدخل السينما.

وعندما بدأ موريسيو بابيلونيا يلاحقها كالشبح، لا يتبينه أحد غيرها، أدركت أن بينه وبين الفراشات علاقة من نوع ما. وقد كان موريسيو بابيلونيا، دائماً، حاضراً في الحفلات الموسيقية، وفي السينما، وفي الصلوات العامة. وما كانت تحتاج إلى مشاهدته كي تعرف بوجوده. فالفراش كان يدل عليه.

وذات يوم، أبدى أوريليانو الثاني انزعاجه من خفق أجنحة الفراش في المكان، فشعرت برغبة مفاجئة في الإفضاء له بسرها، كما سبق لها أن وعدته. ولكن غريزة الأنثى جعلتها تعتقد هذه المرة أنه يضحك، حسب عادته، ويقول: «ترى، ماذا ستقول أمك لو علمت بالأمر». وكانت ميمي وأمها تشذبان شجيرات الورد، فصاحت فيرناندا صيحة ذعر، ودفعت ميمي عن المكان الذي وقفت فيه ريميديوس الجميلة في البستان، عندما صعدت إلى السماء، فلقد شعرت، خلال لحظة مرت كالومض، أن المعجزة ستتكرر بابنتها، لأنها تضايقت فجأة من خفق

الأجنحة المفاجىء. وكان ذلك خفق أجنحة الفراش. وشاهدت ميمي أسراب الفراش، وكأنها ولدت فجأة من النور. واضطربت خفقات قلبها.

وفي تلك اللحظة، دخل موريسيو بابيلونيا يحمل علبة كبيرة، كانت - حسب قوله - هدية من باتريسيا براون. فاحمرّ وجه ميمي خجلاً، واجتهدت حتى بلعت ريقها وتغلبت على اضطرابها، بل تمكنت من اصطناع بسمة طبيعية، حين طلبت إليه أن يتكرم بوضع العلبة على حافة الشرفة، لأن يديها كانتا ملطختين بسبب العمل في الجنينة. ولم تلحظ فيرناندا في ذلك الرجل سوى لونه الأصفر. ولن تتذكر، في المستقبل، عندما ستطرده من باب الدار، أنها سبق لها أن رأته. قالت فيرناندا:

- إنه رجل عجيب. يظن من يرى وجهه أنه سوف يموت قريباً.

وظنت ميمي أن أمها كانت ما تزال تحت تأثير الفراشات. ولما فرغت من تشذيب شجيرات الورد، غسلت يديها، ونقلت العلبة إلى غرفة نومها لتفتحها. وكانت العلبة نوعاً من اللعب الصينية، مؤلفة من خمس علب متدرجة الحجوم، في داخل كل علبة منها واحدة أصغر منها. وفي آخر العلب وأصغرها، وجدت وريقة كتب عليها بخط سيء، دون عناية، العبارة التالية:

- سوف نلتقي يوم السبت في السينما.

وقد أصابت المفاجأة ميمي بالذهول، عندما تخيلت كيف بقيت العلبة فترة طويلة على حافة الشرفة، في متناول يد فيرناندا، عرضة لحب استطلاعها. وغمرها الإعجاب بمهارة موريسيو بابيلونيا، ورق قلبها لبساطته حين توقع أنها ستوافيه إلى موعده.

كانت ميمي تعرف أن أباها سيكون مشغولاً يوم السبت. ولكنها كانت، يوماً بعد يوم، تزداد لهفة وتحرّقاً، مع مضيّ أيام الأسبوع. وأخيراً

أفلحت في إقناع أبيها بأن يسمح لها بالذهاب وحدها إلى السينما. وبأن يأتي لإعادتها إلى البيت عند انتهاء العرض. وحوّمت فوق رأسها إحدى الفراشات، بينما كانت الأضواء تملأ المكان، ثم حدث ما كان منتظراً. فلما أطفئت الأنوار، وصل موريسيو بابيلونيا وجلس بجانبها. وشعرت ميمي كأنها تخوض في مستنقع من التردد، وأن الخوف يعرقل خطوها، وأنها لن تستطيع النجاة مما هي فيه، إلا إذا أنقذها ـ كما رأت في منامها من قبل – هذا الرجل، الذي كانت تفوح منه رائحة الشحم وزيت المحركات، والذي لم تكن تكاد تتبينه في الظلام. قال لها:

ـ لو لم تأت، لما رأيتني من بعد مرة أخرى. وأحست ميمي بثقل يده على ركبتها، وعرفت، في تلك اللحظة، أنهما باتا معاً على وشك الوصول إلى الطرف الآخر من صحراء النسيان. فقالت وهي تبتسم:

ـ ما يصدمني فيك هو أنك تقول دائماً ما لا ينبغي لك أن تقول.

وأصبحت ميمي مجنونة به. فقدت شهيتها للنوم والطعام. وانكفأت على ذاتها، وتقوقعت في أغوار وحدتها، حتى صار أبوها نفسه مزعجاً لها. وابتدعت شبكة معقدة من المواعيد الزائفة تضلل بها فيرناندا. ولم تعد ترى واحدة من صديقاتها. وتجاوزت كل التقاليد والأعراف في سبيل أن تلتقي بموريسيو بابيلونيا في أي مكان وفي أي زمان.

كانت، في البدء، تنزعج من خشونة طباعه. وفي المرة الأولى التي التقيا فيها وحدهما، في الحقل المقفر خلف مرآب تصليح السيارات، ردها، بلا رأفة أو رحمة، إلى حال بهيمية خرجت منها متعبة مجهدة. ولكنها أدركت بعد فترة من الزمن أن معاملته لها تلك كانت صورة أخرى من صور الحنان. ومنذ ذلك الحين فقدت طمأنينتها النفسية، وصارت تعيش من أجله وحدة، يعتمل فيها نهم مقيم لأن تغرق في رائحة الشحم وزيت السيارات المغسول بالصابون الرديء، التي كانت

تفقدها توازنها.

وقبل موت أمارانتا بقليل، استوقفتها واحة من الوضوح والضوء، في خضم جنونها، فأصابها الهلع من صورة مستقبلها المجهول. ثم سمعت عن امرأة تقرأ المستقبل بورق اللعب، فذهبت لزيارتها سراً. ولم تكن تلك إلا بيلار تيريزا.

ومنذ لمحت بيلار تيريزا ميمي داخلة، استطاعت أن تدرك الدوافع الخفيّة لزيارتها. فقالت لها:

ـ اجلسي، فلست بحاجة لورق اللعب لكي أعرف مستقبل فرد من آل بوينديا.

لم تكن ميمي تعرف، كما لن تعرف أبداً، أن تلك العرافة الساحرة، التي تبلغ المئة عام من العمر، ليست سوى جدة أبيها. وما كانت لتصدق أنها كذلك بعد أن أعلنت لها بواقعية فظة أن ذلك النوع من توتر العشق الذي تعانيه لا يمكن أن يهدأ إلاّ في فراش الحب. وكان هذا الرأي نفسه هو رأي موريسيو بابيلونيا، ولكن ميمي كانت تبذل المستحيل من الجهد كي لا تصدق هذا الرأي. وقد وصل بها الأمر إلى أن عزت مثل هذا التفكير منه إلى تكوين عقلي غير سويّ ملازم لطبيعة العمال. بل كانت تظن أن هذا النوع من الحب يهدم الحب الآخر. لأن من طبع الرجال أن يتنكروا للجوع بمجرد أن تشبع شهيتهم.

ولم تكتف بيلار تيريزا بأن بدّدت لميمي مخاوفها، بل زادت على ذلك بأن عرضت عليها السرير العتيق الذي حملت فيه أركاديو، جدّها (جدّ ميمي)، ثم حملت من بعد أوريليانو خوزيه وعلمتها كذلك كيف تمنع الحمل عندما لا تكون راغبة فيه، باستعمال تبخيرة لصقة من دقيق الخردل، كتلك التي تستعمل ضد البرد والزكام، وأعطتها عدة وصفات يمكنها أن تستعملها في الحالات المستعصية، فتطرد الشك، بل تبعد

تأنيب الضمير. وقد كان لتلك المقابلة أثر هائل في سلوك ميمي، إذ أكسبتها جرأة كتلك التي عرفتها في ذلك اليوم الذي أكثرت فيه من شرب الكحول. ولكن وفاة أمارانتا أكرهتها على إرجاء قرارها. وخلال ليالي السهر الحزين التسع، لم تبتعد ثانية عن موريسيو بابيلونيا. الذي اختلط بحشد الناس الذين زحفوا إلى الدار.

وتلت ذلك فترة الحداد الطويلة، مع ما يرافقها من احتجاب إجباري عن الناس. فافترقا فيها إلى أجل، فكانت تلك الأيام أيام هيجان، وتوتر داخلي لا يمكن احتواؤه والسيطرة عليه، ورغائب ملتهبة مكبوتة. فما كان من ميمي، في أول يوم خرجت فيه من الدار، إلاّ أن سارعت إلى بيت بيلار تيريزا. وهناك أسلمت نفسها لموريسيو بابيلونيا دون مقاومة، ولا حياء، وبلا أية شكليّات، وباندفاع طبيعي، وحدس عليم خبير، إلى درجة أن ذلك الرجل لو لجأ إلى سوء النية والظن لاتهمها بخبرة التجربة. وهكذا، وعلى مدى ثلاثة أشهر، راحا يمارسان الحب مرتين كل أسبوع، تحرسهما براءة أوريليانو الثاني الذي كان لا يشك بألاعيب ابنته. فلم يرتب في سلوكها، وكان كل همه أن يساعدها في التخلص من تشدد أمها وقسوتها.

عندما فاجأت فيرناندا ميمي وموريسيو بابيلونيا في السينما، شعر أوريليانو الثاني بعبء ثقيل على وجدانه. فقام إلى ميمي في غرفة نومها، حيث سجنتها أمها، ظنّاً منه أنه سيخفف عنها عندما يتيح لها أن تعترف له بأنها مدينة له بما لم تكشف له من أسرارها. ولكن ميمي أنكرت كل شيء. وكانت تبدو واثقة من نفسها، عاكفة على ذاتها، منزوية في وحدتها. حتى شعر أبوها، أوريليانو الثاني، كأن لم تكن بينها وبينه علاقة صداقة ومشاركة، وكأن الذي كان لم يكن سوى وهم ضائع.

وفكّر أوريليانو الثاني في أن يحدث موريسيو بابيلونيا في الأمر، ظاناً أن سلطته، كمعلم سابق له، يمكن لها أن تردعه وتثنيه عن خططه. ولكن بيترا كوتيس أقنعته بأن ذلك العمل هو من شؤون النساء. وظل هائماً محتاراً متردداً، لا يعزيه سوى الأمل بأن تعود ابنته عن شططها مع نهاية سجنها.

لم يبد على ميمي أي أثر للحزن، بل، على العكس من ذلك، كانت أورسولا تشعر، من غرفتها المجاورة، أن الفتاة كانت تنام نوماً هادئاً، وأنها كانت تقوم بأعمالها بهدوء، وتأكل بانتظام، وتستمتع بوحدتها. أما الشيء الوحيد الذي كان يحير أورسولا، بعد مرور شهرين على العقاب، فهو أن ميمي كانت لا تستحم في الصباح كالآخرين، بل في الساعة السابعة مساء. وقد فكرت عدة مرات في أن تنبهها لخطر العقارب، ولكن ميمي كانت مباعدة لها، ظانة أنها هي التي وشت بها. ففضلت أورسولا ألاّ تزعجها بتعالي أم جدها عليها.

وكان الفراش الأصفر يهاجم الدار مع غروب الشمس. وكانت ميمي، لدى خروجها من غرفة الاستحمام كل مساء، تصادف فيرناندا، وهي تكافح، بيأس، لقتل الفراشات بمضخة مبيدة للحشرات. وكانت تطاردها، وهي تقول :

ـ إن هذا الشيء رهيب. يا للعنة. فقد علمت، طوال عمري أن فراش الليل مجلبة للشؤم.

وفي إحدى الأمسيات، دخلت فيرناندا مصادفة إلى غرفة نوم ميمي، بينما كانت الأخيرة تستحم. فوجدت في الغرفة عدداً كبيراً من الفراش لا يستطيع المرء معه أن يلتقط أنفاسه. فأمسكت بأول خرقة وقعت في يدها، وشرعت تطارد الفراشات وتطردها. ولكنها تجمدت في مكانها، وكاد قلبها يتوقف هلعاً حينما ربطت بين استحمام ابنتها في المساء وبين

لصقات دقيق الخردل التي انفرطت من الخرقة وتدحرجت أمامها على الأرض. هذه المرة، لم تنتظر الفرصة المناسبة، كما فعلت في المرة السابقة. فمنذ الصباح الباكر، في اليوم التالي، دعت محافظ البلدة الجديد إلى الغداء، وكان مثلها من أهالي المرتفعات. وطلبت منه أن يعين لها حارساً ليلياً، لباحة الدار الخلفية، لأنها لاحظت أن هناك من يسرق لها الدجاج.

في مساء ذلك اليوم، أطلق الحارس النار على موريسيو بابيلونيا، وهو ينتزع قطع البلاط والقرميد كي يتسلل إلى مكان الاستحمام، حيث كانت ميمي في انتظاره عارية ترتجف هياجاً وحباً، بين العقارب والفراش، كما كانت تنتظره كل مساء في الشهور الأخيرة. واستقرت الرصاصة في عموده الفقري، فأقعدته طريحاً في سريره حتى آخر حياته. وقد مات طاعناً في السن في عزلته، دون أنة وجع أو اعتراض على مصير، ودون لحظة خيانة واحدة. تعذبه الذكريات والفراش الأصفر الذي لم يدع له لحظة راحة وأمن، وقد لحقت به وصمة عار لكونه سارق دجاج.

(١٥)

بدأت الأحداث التي يمكن أن تودي بماكوندو، فتقصم ظهرها، تظهر جلية عندما جيء إلى بيت بويندِيا بابن ميمي بويندِيا. وكان الوضع العام غير متيقّن، ولا يعرف الثبات على حال، فما كان لأحد أن يهتم بالانغماس في الفضائح الخاصة. فاستطاعت فيرناندا الاستفادة من هذا الجوّ الملائم، مما مكّنها من العمل على إخفاء الطفل، وكأنه لم يوجد أصلاً. ولقد أكرهت على قبوله لأن الظروف لم تكن لتساعدها على رفضه. فقد وجدت نفسها مجبرة على احتماله طوال عمرها، لأنها لم تجد الجرأة في نفسها لتنفيذ ما كانت عازمة، في سرها، على فعله. فقد كانت تفكر فعلياً في إغراقه في الحوض.

حبست فيرناندا الطفل في مشغل العقيد أوريليانو بويندِيا القديم. وأفلحت في إقناع سانتا صوفيا (النقية) بأنها وجدته، اتفاقاً، عائماً في سلة على وجه الماء. وكان من الممكن أن تموت أورسولا دون أن تعرف أصل الطفل ومنشأه. وقد صدّقت أمارانتا أورسولا الصغيرة قصة السلة العائمة، حين دخلت مرة، عن طريق المصادفة، إلى المشغل، بينما كانت فيرناندا تطعم الطفل الصغير.

أما أوريليانو الثاني، وكان قد تخلى نهائياً عن زوجته بسبب الطريقة غير المعقولة التي عالجت بها موضوع ميمي المأساوي، فلم يدر عن وجود حفيده إلاّ بعد ثلاث سنوات من وصوله إلى البيت. وكان ذلك عندما

أفلت الصغير مرة، في لحظة انشغال من فيرناندا، ففرّ من سجن عبوديتها. فظهر على الشرفة، خلال برهة تقل عن ثانية، عارياً كما ولدته أمه. وكان ذا شعر كأنه عوسجة، وله عضو ذكري كأنه عرف ديك حبش. فبدا كأن لم يكن طفلاً آدمياً سوياً، بل صورة مضخّمة موسوعية لواحد من أكلة لحوم البشر.

لم تكن فيرناندا تنتظر تلك الحيلة القذرة من قدرها اللعين. فكأن الطفل بمثابة تحريك للعار الذي ظنت أنها استأصلت جذوره من الدار. فمنذ اللحظة التي نقل فيها موريسيو بابيلونيا إلى بيته. عمدت إلى خطة دقيقة التفاصيل، أمعنت التفكير في كل جزء منها، لعلها بذلك تغسل كل آثار الخزي والعار إلى الأبد. ومنذ صباح اليوم التالي، حزمت أمتعتها، دون أن تخبر زوجها، ووضعت ثلاثة غيارات داخلية لابنتها في حقيبة صغيرة. ثم مضت إلى غرفة نوم ميمي، قبل موعد القطار بنصف ساعة، ونادتها قائلة :

– هيّا يا ريناتا .

ولم توضح لها ما كانت تريده منها. ولم تكن ميمي تنتظر من أمها شيئاً مثل ذلك، بل لم تكن راغبة في مثل ذلك. فهي لم تجهل الوجهة التي كانتا ستتجهانها وحسب، بل تساوت عندها الأمور، حتى لو كانوا سيأخذونها إلى المسلخ. فلم تنبس ببنت شفة، ولم تفتح فاها بقصد الكلام منذ تلك اللحظة التي دوّت فيها طلقة الحارس في الساحة الخلفية للدار، واقترنت بصرخة موريسيو بابيلونيا الأليمة.

وعندما أمرتها أمها بالخروج من غرفة نومها، خرجت دون أن تسرّح شعرها أو تغسل وجهها. فصعدت إلى القطار كأنها منوّمة، حتى إنها لم تر أسراب الفراش الأصفر الذي كان يحوم فوق رأسها أنّى توجهت. ولم تدر فيرناندا، بل لم تكلف نفسها عناء أن تدري ما إذا كانت ابنتها قط

انقطعت عن إرادة الكلام، فأصبحت كأنها شاهد ضريح، أم أنها لم تعد قادرة على النطق بسبب هول المأساة.

كانت ميمي أبعد من أن تشعر بروعة الرحلة عبر المنطقة الساحرة الخلابة. فلم تشاهد بساتين الموز الظليلة المترامية الأطراف على جانبي سكة القطار. ولم تر بيوت الأجانب البيضاء. ولا بساتينهم التي غمرها الغبار. ولم تشعر بالحرارة، ولم تشهد النسوة اللاتي خرجن بنباطيلهن القصيرة، وملابس الاستحمام الخفيفة، وقمصانهن المخططة باللون الأزرق، وهن يلعبن بالورق في ظلال شرفات دورهن. ولم تر العربات التي كانت تجرها الثيران على الدروب الترابية، وقد ازدحمت فوقها قطوف الموز. ولم تشهد الصبايا اللواتي كنّ يتواثبن كالسمك في مياه الأنهار الرقراقة الصافية، فيسببن لركاب القطار حسرة مرة بمناظر نهودهن الناتئة الجميلة، ولا بيوت العمال البؤساء المتواضعة الواضحة، بينما فراشات موريسيو بابيلونيا تطير بينها، ولا الأطفال الخضر الصفر على عتبات تلك البيوت البائسة، ولا النساء الحوامل اللواتي كنّ يتفوّهن، صراخاً، بالكلمات البذيئة لدى مرور القطار بهن.

لقد سبق لتلك المشاهد أن كانت تفعم قلب ميمي غبطة وسعادة، وهي عائدة من الكلية. ولكنها الآن تمرّ بها فلا توقظ قلبها من سباته وعنائه. لم تلق نظرة واحدة عبر نافذة القطار. حتى بعد أن قطعت مروج الموز برطوبتها الخانقة. ثم مرّ القطار في حقول تغطيها شقائق النعمان، وفيها بقايا هيكل متفحم لسفينة إسبانية، ثم يمّم صوب الشاطىء ذي الهواء العليل، على الرغم من بحره القذر الأجاج، مروراً إلى المكان الذي انتهت فيه أوهام خوزيه أركاديو بوينديا منذ قرن من الزمن.

في الساعة الخامسة عصراً، وصلتا إلى آخر محطة في إقليم المستنقعات (الماريجو)، فتحركت ميمي مثلما تحركت فيرناندا. فلحقت

بها عندما نزلت من القطار. وصعدتا إلى عربة صغيرة تشبه الخفاش الكبير، يجرها حصان مريض كأنه مصاب بالربو. وعبرتا المدينة المقفرة، عبر شوارع كثيرة، تآكلت بفعل ملح البارود، يسمع من البيوت على جوانبها عزف على آلة البيانو، كذلك العزف الذي كانت تسمعه فيرناندا، أيام صباها، في وقت القيلولة.

ثم أبحرتا على متن مركب نهريّ، تحدث عجلته الخشبية الكبيرة قرقعة كأصوات الانفجارات، وله مفاصل معدنية تآكلت بفعل الأكسدة، فصار احتكاكها بعضها ببعض يصدر شرراً كما هي الحال عند باب فرن.

أغلقت ميمي على نفسها باب حجرتها. وجعلت فيرناندا تدخل عليها مرتين في اليوم، فتضع لها طبق الطعام قريباً من سريرها، لتعود فتأخذه دون أن تمسه ميمي. وما كان ذلك منها لأنها عزمت على أن تقضي جوعاً، بل لأنها كانت تقرف رائحة الطعام، ولا تقبل معدتها بقاء شيء فيها، حتى إنها كانت تلفظ الماء إذا شربته. ولم تكن تدري، حينئذ، أن خصوبتها قد تغلبت على لصقات الخردل، وهو أمر لم تعلم به فيرناندا أيضاً، إلاّ بعد عام، حين جيء بالطفل إليها.

وقد تعبت ميمي من جو الحجرة الخانق، وأمرضها اهتزاز الحواجز المعدنية، بين الحجرات وفي أرضها، وأعيتها رائحة الطين التي كانت تتعجن بفعل حركة العجلة الخشبية الكبيرة في المركب، فضيعت حساب الأيام والتاريخ. وانقضى زمن دون أن ترى آخر الفراشات الصفراء، بعد أن مزّقتها إرباً صفائح مروحة المركب ودفّته. فأدركت واقعاً لا مردّ له، ألا وهو موت موريسيو بابيلونيا. ولكنها لم تستسلم لقبول تلك الفكرة، ولم ترضخ لذلك الواقع. بل دأبت على التفكير فيه، حتى وهي على ظهر البغل تقطع الشعاب الوعرة في تلك الأرض الصحراوية المقفرة العجيبة، التي كاد يضيع فيها أبوها، أورليانو الثاني، حين جاء يبحث

عن أمها فيرناندا، أجمل امرأة عرفها وجه الأرض.

لم يبرح موريسيو بابيلونيا مخيلة ميمي ولا ذاكرتها، وهي تتسلق الجبال، على الدروب الهندية الضيقة، التي تؤدي إلى المدينة الحزينة، التي تتردّد في أزقتها المحصبة أصداء نواقيس الموت والحزن المنبعثة من اثنتين وثلاثين كنيسة فيها.

وأمضتا تلك الليلة في ذلك البيت الملكي الاستعماري القديم، الذي كان مقفراً من أهله، فوق خشبات رتبتها فيرناندا على أرض إحدى الحجرات، حيث كان العوسج قد نما. وكان غطاؤهما مزقاً من الستائر انتزعتاها عن النوافذ، وكانت رثة تتمزق كلما تحركت تحت جسم الواحدة منهما.

وتبينت ميمي مكان وجودهما حين مرّ أمامها، في حمّى الأرق الذي كانت فيه، ذلك الرجل الذي كان يرتدي حلة سوداء، والذي سبق أن رأته حين جيء به إلى البيت في صندوق من رصاص في ليلة عيد الميلاد منذ زمن بعيد. وفي صباح اليوم التالي، قادتها فيرناندا، بعد الصلاة، إلى مبنى قاتم كئيب، عرفت ميمي، مذ رأته، أنه الدير الذي كانت تحدثها عنه أمها، عندما كانت تتذكر نشأتها الملكية فيه. وعندها أدركت أنها وصلت آخر المطاف من رحلتها. ومكثت ميمي في قاعة كبيرة تزينها صور زيتية لأساقفة، تعود للعهد الملكي الاستعماري. وكانت ما تزال في ثوبها المزدان بالزهور السوداء، وتلبس حذاء له كعب عال صلد، وقد تورمت قدماها فيه بسبب برد الجليد في منطقة الهضاب، بينما كانت أمها تتحدث مع أحد الرجال في المكتب المجاور. وظلت ميمي واقفة جامدة، وسط القاعة، وهي تفكر بموريسيو بابيلونيا، بينما تتسرب، من زجاج النوافذ، أشعة صفراء. ثم دلفت إلى القاعة راهبة رائعة الجمال، وهي تحمل لميمي حقيبتها بغياراتها الداخلية الثلاثة. فأمسكت بيد ميمي، حين

وصلت قربها، ودون أن تتوقف، قالت لها :

ـ تعالي، يا ريناتا.

فأمسكت ميمي بيدها، وأسلمت قيادها لها. وألقت فيرناندا آخر نظرة لها عليها، وهي تحاول أن توازن بين خطوها وخطو الراهبة. ثم رأت الباب الحديدي ينزل وراءها، فيسد مدخل الدير.

كانت ميمي، حينئذ، تفكر بموريسيو بابيلونيا، بملمس الشحم ورائحة زيت السيارات، وبالفراش الذي كان يحلق دائماً حوله. وقد ظلت تفكر فيه طوال حياتها، حتى ذلك الفجر الخريفي ـ وهو ما يزال بعيداً أمامها ـ عندما ماتت في شيخوختها، ولها هوية غير هويتها، دون أن تتلفظ بكلمة واحدة في حياتها، في مأوى للعجزة مظلم قاتم كئيب في كراكوفيا.

وعادت فيرناندا إلى ماكوندو في قطار يحرسه البوليس المسلح. ولاحظت خلال رحلتها سلوك المسافرين بعصبية، كما لاحظت الاستعدادات الحربية في القرى التي يمر بها الخط الحديدي. ودلها الجوّ العام، بما يشبه اليقين، على أن شيئاً خطيراً كان على وشك الحدوث. وتريثت حتى تصل إلى ماكوندو للحصول على المزيد من المعلومات.

روي لها أنّ خوزيه أركاديو الثاني كان يحرض عمال شركة الموز على الإضراب. فقالت في نفسها :

ـ ما ينقصنا سوى هذا ؛ فوضويّ في العائلة.

وانفجر الإضراب بعد أسبوعين من ذلك التاريخ، ولكنه لم يؤدّ إلى نتائج حاسمة جذرية. فقد كان العمال يرفضون إرغامهم على العمل ونقل قطوف الموز يوم الأحد. وهو مطلب رآه الناس مشروعاً، حتى إن الأب أنطونيو إيزابيل دافع عنه لأنه وجده متوافقاً مع شريعة الرب. ونجح الإضراب، ثم تلاحقت نجاحات العمال في الشهور التالية. وبرز خوزيه

أركاديو الثاني من عالمه المجهول. الذي كان يتوارى فيه، وهو الذي لم يكن الناس في البلدة يعرفون عنه إلاّ أنه مالىء بلدتهم بالمومسات الفرنسيات. فاتخذ قراراً نارياً مشبوباً بالعاطفة، يشبه القرار الذي اتخذه في الماضي، يوم باع ديكة القتال لكي يؤسس شركة غريبة للملاحة. استقال من عمله، رئيساً للعمل في شركة، ووقف إلى جانب العمال يساندهم.

وسرعان ما اتهم بأنه عميل في إحدى المؤامرات العالمية ضد النظام العام. وبينما كان، في إحدى الليالي خارجاً من اجتماع سري ـ وكان ذلك الأسبوع قد حفل بالشائعات السوداء ـ أطلق عليه مجهول أربع رصاصات من مسدس، نجا منها بأعجوبة. وتوتر الجو في الأشهر التالية، حتى تناهت الأخبار إلى أورسولا، وهي حبيسة الظلام في قرنتها. فشعرت أنها تعيش، مرة أخرى، واحدة من الحقب السوداء، التي خبرتها أيام كان ابنها أوريليانو (العقيد) يحمل في جيبه حبوب الثورة علاجاً لها. وشاءت أن تحدث خوزيه أركاديو الثاني، لعلها تنبهه إلى تلك السابقة، ولكن أوريليانو الثاني أخبرها أنه قد اختفى منذ الليلة التي شهدت محاولة اغتياله، وأنّ أحداً لا يعرف شيئاً عنه. فصاحت أورسولا قائلة :

ـ تماماً كما فعل أوريليانو (العقيد) . فكأن التاريخ يعيد نفسه .

ولم تكترث فيرناندا كثيراً بالمخاوف والشكوك التي كانت تسود تلك الأيام. فقد قطعت صلاتها بالعالم بعد الشجار العنيف الذي جرى بينها وبين زوجها، أوريليانو الثاني، لأنها قرّرت مصير ميمي دون الرجوع إليه . وعزم أوريليانو الثاني على إنقاذ ابنته ، ولو بمساعدة البوليس ، إذا اقتضى الأمر ذلك. ولكن فيرناندا أطلعته على أوراق تثبت أن ابنته قد اختارت العيش في الدير بمحض إرادتها.

والواقع أن ميمي قد وقعت تلك الأوراق بعد أن أصبحت خلف باب الحديد، وبنفس الازدراء اللامبالي الذي أذعنت فيه لقيادها إلى حيث وصلت. ولم يقتنع أوريليانو الثاني، في داخله، بصحة ذلك الدليل. كما لم يقتنع بأن موريسيو بابيلونيا قد دخل باحة الدار ليسرق الدجاج. ولكنه تذرع بالحجتين لتهدئة وجدانه وضميره. ومكنه موقفه ذاك من العودة، بلا أسف أو حزن، إلى أحضان بيترا كوتيس. فاستأنف حفلاته الصاخبة وولائمه المترفة بحرية تامة.

كانت فيرناندا في منأى عن قلق البلدة، وقد أصمّت أذنيها عن تشخيص أورسولا المخيف. ولم يكن يهمها سوى وضع اللمسات الأخيرة على مخططها. فكتبت رسالة مطولة إلى ابنها خوزيه أركاديو، وكان قد بات على وشك أن يصبح راهباً مبتدئاً. وأخبرته في الرسالة أن أخته ريناتا قد أسلمت نفسها إلى سلام الرب، بعد إصابتها بالحمى الصفراء. ثم وضعت أمارانتا أورسولا في رعاية سانتا صوفيا (التقية) لتربيتها. وانصرفت لتنظيم مراسلاتها مع الأطباء المجهولين، بعد أن اضطرب نظام تلك المراسلات، في أثناء الأحداث التي جرت لميمي. وكان أول أمر قامت به هو تحديد موعد أخير لإجراء العملية التخاطرية التي تأخرت كثيراً. وأجابها الأطباء المجهولون بأن ذلك غير ممكن ولا معقول، في ذلك الجو من الاضطراب الشعبي في ماكوندو. وكانت في عجلة من أمرها، وفي جهل لما كان يجري في البلدة فحرّرت لهم رسالة أخرى تشرح لهم فيها أنه لا وجود لمثل ذلك الجو المزعوم من الاضطرابات، وأن ليس في الأمر سوى طفرة جنون لابن حميها الذي يلهو الآن بالأعمال النقابية، كما كان يلهو، قبلاً، بصراع الديكة، ومن بعد بالملاحة.

وكان الأمر ما يزال معلقاً بينها وبينهم، حين وصلت إلى الدار راهبة عجوز، وكان اليوم أربعاء. فطرقت الباب، وهي تعلق سلة بيدها،

ففتحت لها سانتا صوفيا (التقية) الباب. وظنت أنها تحمل لهم هدية، فأرادت أن تحمل عنها السلة المجللة بستار جميل من الدانتيلا. ولكن الراهبة ردّتها، قائلة بأن الأوامر التي لديها تقضي بأن تسلمها، في غاية السرية، شخصياً إلى الدونة فيرناندا ديل كاربيو دي بوينديا.

كان ذلك ابن ميمي.

وقد كتب مدير فيرناندا الروحي السابق رسالة مطوّلة لها، يشرح فيها أن الطفل ولد قبل شهرين من موعده، وأنه سمح لنفسه بأن يعمده باسم جده، أوريليانو، لأن أم الطفل لم تنبس ببنت شفة حين طلب إليها أن تذكر رغبتها في التسمية.

وحارت فيرناندا، بينها وبين نفسها، من سخرية القدر، ولكنها تماسكت، فلم تبد شيئاً من حنقها للراهبة، بل قالت لها وهي تبتسم :

ـ سوف نذكر لهم أننا وجدناه طافياً بهذه السلة. فأجابت الراهبة :

ـ ولكنّ أحداً لن يصدق ذلك.

فقالت فيرناندا :

ـ لا أرى لماذا لن يصدقني الناس، ما داموا قد صدقوا الكتاب المقدس (التوراة).

تناولت الراهبة طعام الغداء في البيت، في انتظار عودة القطار الذي ستستقله عائدة إلى حيث أتت. وقد حافظت على ما أمرت به من كتمان أمر الطفل، فلم تذكره في حديثها. ولكن فيرناندا كانت ترى فيها الشاهد الممقوت على عارها، ولكم حزنت لزوال عادة القرون الوسطى التي كانت تقضي بشنق الرسول الذي ينقل الأخبار السيئة. وعندئذ قررت أن تغرق الطفل في برميل ماء لدى رحيل الراهبة. ولكنها لم تجرؤ على تنفيذ خطتها، وآثرت الانتظار صابرة، لعلّ حلم الرب اللانهائي

يلهمها إلى ما ينقذها من ذلك العبء المزعج.

وأتم أوريليانو الجديد العام الأول من عمره في الوقت الذي تفجر فيه الغليان الشعبي بشكل عنيف ودون مقدمات. وكان خوزيه أركاديو الثاني وسائر القادة النقابيين يعملون، حتى ذلك الحين، في الخفاء. فظهروا فجأة في نهاية الأسبوع، وأشعلوا فتيل المظاهرات في قرى منطقة الموز كلها. ولم تفعل الشرطة إزاء ذلك سوى الحفاظ على النظام. ولكنها، في ليلة الإثنين، داهمت بيوت المسؤولين جميعاً. واعتقلتهم وأودعتهم سجن عاصمة الإقليم، حيث قيدت كلاً منهم بأغلال من الحديد وزنها رطلان. وكان بين المعتقلين خوزيه أركاديو الثاني، ولورنز جافيلان، وهو أحد عقداء الثورة المكسيكية المنفي إلى ماكوندو، والذي روى أنه كان شاهد عيان على بطولة رفيقه أرتيميو كروز. وقد تمّ إطلاق سراحهم، على كل حال، في غضون ثلاثة أشهر، نتيجة للخلاف بين الحكومة وشركة الموز، اللتين لم تتوصلا إلى اتفاق على من يقدم لهم الطعام في السجن. وكان احتجاج العمال، هذه المرة، على انعدام النظافة والرعاية الصحية في أماكن السكن، وغياب الخدمات الطبية، وشروط العمل القاسية الرهيبة. وقد ذكروا كذلك أن أجورهم كانت لا تدفع لهم بالدراهم، بل قسائم لا تفيدهم إلاّ لشراء لحم خنزير فرجينيا من مخازن الشركة. وقد سجن خوزيه أركاديو الثاني لأنه أعلن أن تلك الطريقة من الدفع لم تكن سوى وسيلة تموّل بها الشركة سفنها التي تنقل بها الفواكه. فقد كان على تلك السفن أن ترجع فارغة، من نيو أورليانز في أميركا الشمالية حيث توصل الموز المشحون، إلى مرافىء تحميل الموز في الإقليم، إلاّ إذا شحنت بالمواد التموينية إلى مخازن الشركة. أما الشكاوى الأخرى فقد كان الناس جميعاً يعرفونها. فلم يكن أطباء الشركة يفحصون المرضى، بل يوقفونهم في صف طويل أمام المستوصفات. ثم

تضع لهم ممرضة حبة دواء بلون الزمرّد على ألسنتهم. سواء أكان الواحد منهم مريضاً بالملاريا أم السيلان أم الإكتام (الإمساك). وقد انتشر هذا العلاج، إلى درجة أن الأطفال كانوا يندسون بين المصطفّين، مرّات ومرات، فيأخذون حبات الدواء المزعوم. وبدلاً من ابتلاعها كان يستعملونها مؤشرات في لعبة البنجو. وكان عمال الشركة يبيتون مزدحمين في بيوت بائسة مبنية من الخشب. وكان المهندسون، بدلاً من إنشاء المراحيض للعمال ، يخصصون مرحاضاً متحركاً لكل خمسين عاملاً، يحضرونه في أيام عيد الميلاد، ويقدمون العروض العامة حول كيفية استخدام تلك المراحيض، كي تبقى صالحة للاستعمال أطول فترة ممكنة من الزمن.

وكان كبار المحامين المزيفين، بحللهم السوداء، والذين كانوا في الماضي يحيطون بالعقيد أوريليانو بويندیا، وأصبحوا الآن وكلاء شركة الموز، يلفقون للعمال كل صنوف التهم والدعاوى. وقد رفع العمال مذكرة بمطالبهم حظيت بتأييدهم جميعاً، وأمضوا زمناً طويلاً وهم يحاولون تقديمها إلى المسؤولين الرسميين في شركة الموز. ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح. لأن السيد براون، عندما عرف بالاتفاق الذي توصلوا إليه بالإجماع ، لم يكن منه إلاّ أن ربط عربته البلورية الفخمة بالقطار، وتوارى عن أنظار أهل ماكوندو جميعاً، مع جميع البارزين من المسؤولين في شركته.

واتفق أن اكتشف بعض العمال واحداً من أولئك المسؤولين، يوم السبت التالي، في أحد بيوت الدعارة، فأجبروه على توقيع نسخة من مذكرتهم التي تحمل المطالب، بينما كان عارياً مع امرأة وافقت على جرّه إلى هذه المكيدة. ولكن المحامين، ذوي الوجوه الرسمية الأقرب إلى الحداد، أثبتوا في المحكمة ألاّ علاقة لذلك المسؤول بالشركة. ولكي يبعدوا

كل ملمح أو أثر للشك، لدى أي إنسان، في حجتهم، ألقوا به في غيابة السجن، بتهمة انتحال صفة غير صفته.

وبعد فترة وجيزة، فاجأ العمال السيد براون متنكراً في إحدى عربات الدرجة الثالثة في القطار. فأرغموه على توقيع نسخة من مذكرة مطالبهم. وأحضر في اليوم التالي إلى المحكمة، أمام القضاة، وقد صبغ شعره بلون أسود، وهو يتكلم اللغة الإسبانية بطلاقة. وأثبت المحامون أنه ليس السيد جاك براون مدير شركة الموز، المولود في براتيل من ولاية الاباما، بل تاجر نباتات طبية، ولد في ماكوندو وعمِّد فيها باسم داجوبيرتو فونسيكا. وحين واجهت المحامين، بعد فترة، محاولة أخرى قام بها العمال، فما كان منهم إلاّ أن عرضوا على الملأ علناً شهادة وفاة السيد براون، وألصقوها في الأماكن العامة، مصدقة من قناصل ووزراء أجانب. وكانت تلك الشهادة تنص على أنه في التاسع من حزيران (يونيو) الماضي دهسته في شيكاغو سيارة إطفاء. وصارت دوامة تلك الأحداث كتفسير كتب السحر، مما أتعب العمال، وجعلهم يقلعون عن متابعة تقديم مطالبهم إلى سلطات ماكوندو. فاتجهوا صوب المحاكم العليا.

وهنا أثبت المحامون المختصون باختراع الأوهام أن ليس لمطالب العمال أي قيمة لسبب، في غاية البساطة، هو أن شركة الموز لم تستخدم في الماضي، ولا تستخدم في الحاضر، ولن تستخدم في المستقبل عمالاً خاصين بها. فهي إنما تستأجر بعض الشغيلة عند الحاجة، ولأجل محدود، كمياومين مؤقتين. وهكذا طويت حكاية خنازير فرجينيا، وحبوب الدواء العجيبة، ومراحيض ليلة الميلاد. وصدر قرار المحكمة العجيب. فقد أعلنت المحكمة بكل هيبة ووقار أن لا وجود للعمال.

وانفجر الإضراب العام الكبير. وتأثرت الزراعة بتوقف موسم القطاف

في منتصف الطريق. وأصيبت الفواكه بالتلف، وبقيت القطارات ذات المئة والعشرين عربة واقفة على الخطوط الفرعية لسكة الحديد. وازدحمت القرى والمدن بالعاطلين عن العمل. وعاد إلى شارع الأتراك بهاؤه بعد أن ضج بسبت طويل دام بضعة أيام. واضطر المشرفون على قاعة البلياردو، في فندق جاكوب، لتنظيم نوبات للعمل على مدار الساعة. وهناك كان خوزيه أركاديو الثاني، يوم اعلن أنه قد أوكلت إلى الجيش مهمة حفظ النظام العام.

لم يكن خوزيه أركاديو الثاني ممن يعتقدون بالنبوءات، ومع ذلك فقد كان ذلك النبأ عنده نذيراً بالموت، الذي كان ينتظره منذ صباح ذلك اليوم البعيد، عندما أتاح له العقيد جيرينيلدو ماركيز أن يشهد تنفيذ حكم الإعدام. ولكن النبأ والإشارة لم ينالا قط من وقاره وعزمه. فنفّذ الضربة كما سبق له أن خطط لها، دون أن يفسد ذلك عليه شيئاً.

وبعد قليل، تناهى إلى سمعه دويّ قرع الطبول العنيف، مصحوباً بعواء أبواق النفير، مختلطاً بأصوات الناس ووقع أقدام خطاهم الحثيثة. وهو لم ينته بعد من لعبة البلياردو، كما لم ينته من اللعبة الصامتة الوحيدة التي كان يمارسها بينه وبين نفسه منذ أمد طويل، أي منذ صباح تنفيذ الحكم بالإعدام.

خرج إلى الباب وشاهد صفوف الجنود. كانوا ثلاثة ألوية، تهتز الأرض تحت وقع أقدامهم، وينتظم خطوهم مع أصوات قرع الطبول، وكأنها طبول المحكومين بالأشغال الشاقة. تصدر عنهم أنفاس كأنما هي أنفاس تنين متعدّد الرؤوس والوجوه، فتملأ جو الصباح الصافي ببخار كبخار الطاعون.

كانوا قصاراً غلاظاً أفظاظاً متوحشين، يتصببون عرقاً كالخيل في الحر. لهم رائحة نتنة كرائحة لحم تعفّن في الشمس. هيئاتهم جريئة، منقبضة،

صامتة كهيئات رجال الهضاب العليا، أو كالهضاب ذاتها. واستمر العرض العسكري، من أوله إلى آخره، نيّفاً وساعة. فتبادر للمشاهد أنهم سريّة صغيرة كانت تدور حول نفسها، لشدة الشبه فيما بينهم، كأنما ولدتهم أم واحدة، فأرضعتهم نفس الغباء الذي يبدو عليهم جميعاً، وهم يحملون جعب العسكر وأكياسهم ومطراتهم، وعار بنادقهم المنتهية بحراب تبرز قرب فوّهاتها، ووباء الطاعة العمياء، والمفهوم الخاطىء لمعنى الشرف.

سمعت أورسولا كل ذلك، وهي في سرير ظلامها وعماها، فصالبت إصبعيها. وعادت سانتا صوفيا (التقية) إلى العمل الذي تخلت عنه حينها، فانحنت على غطاء مطرّز تكويه. وفكرت بابنها خوزيه أركاديو الثاني، الذي يرقب العرض العسكري، حتى آخر جندي، أمام فندق جاكوب، دون وجل، ودون أن يرتجف له قلب.

كان الجيش، بعد إعلان الأحكام العرفية، يستطيع أن يؤدي دور الحكم في الخلاف، ولكنّ أحداً لم يكن يفكر في محاولة الصلح. فانتشر جنود الجيش في كل أنحاء ماكوندو. وبعد أن نظفوا بنادقهم رتبوها في أماكنها، ثم انصرفوا إلى قطف الموز وتحميله. وبذلك أعادوا تسيير القطارات. وما كان من العمال، الذين كانوا حتى ذلك الحين يرقبون ما يجري منتظرين، إلاّ أن نهضوا إلى الجبال، لا يحملون سوى فؤوسهم وفرّاعاتهم التي هي أدوات عملهم. وشرعوا يقطعون الطريق على هذا التخريب المدمر لحياتهم. فأحرقوا المزارع والمخازن، ودمّروا خطوط سكة الحديد ليمنعوا تحرك القطارات التي كانت تشق طريقها تحت وابل الرصاص ودويّ المدافع الرشاشة، وقطعوا خطوط البرق والهاتف.

واصطبغت مياه الأنهار بالدماء. واضطر السيد جاك براون ـ وكان ما يزال حياً، يعيش في زريبة الدجاج المكهربة مع بعض مواطنيه ـ إلى

الخروج من ماكوندو. فوضعوا تحت حراسة الجيش. وأوشكت الأمور أن تتحول إلى حرب أهلية دموية غير متكافئة. فدعت السلطات العمال إلى اجتماع في ماكوندو. وأعلنت، في نداء عام، أن حاكم الإقليم المدني العسكري، سوف يصل يوم الجمعة التالي للتوسط في الخلاف الناشب بين العمال وشركة الموز.

كان خوزيه أركاديو الثاني بين الحشود التي تجمهرت أمام المحطة منذ صباح يوم الجمعة الباكر. وكان، قبل ذلك، قد شارك في اجتماع نقابي أوكل إليه وإلى العقيد جافيلان أن يختلطا بالناس، وأن يوجهوهم حسب مقتضيات الظروف. وأحس بأنه على غير ما يرام، فأخذ يحرك ما بين لسانه وسقف حنكه عجينة طعمها مالح، منذ أن رأى مرابض المدافع الرشاشة، التي نصبها الجنود حول الساحة الصغيرة، والمدافع التي ركزوها خلف الأسلاك الشائكة، للدفاع عن مدينة شركة الموز. كان عدد المحتشدين، عند الظهر، نحو ثلاثة آلاف من العمال النساء والأطفال. جميعهم ينتظرون قطاراً لا يجيء. وازداد تزاحم الناس، حتى ضاقت بهم الساحة أمام المحطة. فأفاضوا على الشوارع المؤدية إليها، والتي كان الجيش قد سدّها بسياج من المدافع الرشاشة.

لم يكن المشهد مشهد استقبال وحسب، بل عيد يضج بالحيوية والمرح. فقد انتقلت إلى المكان بسطات باعة المقليات والمشروبات من شارع الأتراك. واحتمل الناس، بشجاعة وصبر، ملل الانتظار تحت أشعة الشمس الحارقة. ولما قاربت الساعة الثالثة بعد الظهر، سرت بين الناس شائعة مفادها أن القطار لن يصل قبل الغد. فندّت عن الجمهور المتعب تنهيدة قنوط. وعندها اعتلى ملازم من الجيش سطح المحطة، تحيط به أربعة مدافع رشاشة مصوبة إلى الحشد. وقرع جرس يدعو الناس للسكوت.

كانت بالقرب من خوزيه أركاديو الثاني امرأة بدينة، حافية القدمين، ويصحبتها طفلان أحدهما في السابعة والآخر في الرابعة من عمره. فحملت الصغير بين ذراعيها، وطلبت من خوزيه أركاديو الثاني ـ وما كانت تعرفه ـ أن يرفع الآخر لعله يسمع ما سيقال. فرفعه هذا وأجلسه على كتفه. ولقد ظل هذا الطفل يروي لسنوات، من بعد، دون أن يصدقه أحد، كيف شاهد الملازم، وبيده بوق لتكبير الصوت، وهو يقرأ على الناس المرسوم رقم ٤، الذي أصدره حاكم الإقليم المدني العسكري. وكان المرسوم بتوقيع اللواء كارلوس كورتيس فارغاس وأمين سره الرائد أنريكو جارسيا إيزازا. وهو يشتمل على أربع وثمانين كلمة، وردت في ثلاث مواد، ويصف المضربين عن العمل بأنهم عصابة من المشاغبين، ويخوّل الجيش صلاحية إطلاق الرصاص على أساس الظن والشبهة.

بعد قراءة المرسوم، ، هبّت في سماء الساحة موجة صمّاء صاخبة من صرخات الاحتجاج والاعتراض. فحلّ نقيب مكان الملازم على سطح المحطة. وأشار ببوق تكبير الصوت إلى أنه يريد أن يتكلم. فخيّم السكوت على الحشد من جديد. فقال النقيب بصوت ضعيف فاتر متعب :

– سيداتي . سادتي . أمنحكم خمس دقائق مهلة لكي تتفرقوا وتخلوا الساحة.

وضاع رنين البوق الذي أعلن بدء المهلة، بين الصفير والصراخ العنيف. فلم يتحرك أحد من مكانه. فاستأنف النقيب كلامه باللهجة والحدة ذاتهما، قائلاً :

ـ انتهت الدقائق الخمس. دقيقة أخرى ثم نطلق النار.

وتجمد خوزيه أركاديو الثاني وهو ينضح عرقاً بارداً. ثم أنزل الطفل عن كتفه، وأعطاه لأمه التي تمتمت قائلة :

ـ هؤلاء الأوباش أهل لأن يطلقوا النار فعلاً.

ولم يتسع الوقت لخوزيه أركاديو الثاني كي يعلق على قولها، إذ ارتفع في تلك اللحظة صوت العقيد جافيلان الأجش، مردداً كلمات المرأة بصراخ رهيب. وأصيب خوزيه أركاديو الثاني بما يشبه السكر بسبب التوتر، وعمق الصمت البليغ. وكان يؤمن بأن لا شيء يمكن أن يحرك ذلك الحشد الهائل الذي شدّه سحر الموت. فرفع خوزيه أركاديو الثاني نفسه، حتى بات فوق رؤوس الناس الواقفين أمامه. ولأول مرة في حياته، صاح بصوت جهوري :

ـ أيها الأوباش. خذوا دقيقتكم الإضافية، وسدّوا بها أدباركم.

وما إن ارتفعت صيحته حتى حدث شيء ما لم يجلب الرعب فحسب، بل سبب نوعاً من الهلوسة. أصدر النقيب أمره بإطلاق النار، فاستجاب له، في الحال، أربعة عشر مربضاً من مرابض المدافع الرشاشة. ولكن ما جرى إنما كان أشبه بتمثيلية هزلية. حتى لكأن المدافع الرشاشة كانت محشوّة بذخيرة خلّب، أو بأسهم نارية للاحتفال. ذلك أن الناس سمعوا قعقعتها اللاهثة، وشاهدوا بصافها الناري، ولكنّ أحداً لم يشهد أي ردّ فعل لها. فلا صوت، ولا آهة ندّت عن الجمهور المتراص، وكأنّ مناعة غير عادية قد ألصقت الناس بعضهم ببعض.

وفجأة، انطلقت من صوب المحطة صرخة موت، فمزقت سحر الموقف دفعة واحدة :

ـ آخ، يا أمي.

وتلا ذلك ما يشبه هزة أرضية، وتفجرت حمم بركانية، وحدث انهدام في وجه الأرض. وانفجر كل ذلك في وسط الجمهور، وانتشر بين الناس بسرعة هائلة. ولم يجد خوزيه أركاديو الثاني متسعاً من الوقت لأكثر من أن يرفع الطفل، بينما غابت الأم وطفلها الآخر بين أمواج

الحشود التي راحت تتدافع خوفاً وهلعاً.

وظل الطفل سنين طويلة، من بعد، يروي ما جرى، حتى جاء وقت اتهمه فيه جيرانه أنه شيخ خرف فقد صوابه. كان يروي كيف حمله خوزيه أركاديو الثاني، ورفعه فوق رأسه، وكيف تناقلته الأيدي في الهواء، كأنما رفعه رعب الجماهير، فطفا فوقها باتجاه شارع جانبي. وأدرك الطفل مكانه المرتفع فوق رؤوس الناس، عندما وصل به الجمهور الجامح إلى زاوية الشارع العام. ولاحظ كيف فتحت المدافع الرشاشة أشداقها بالنار، وعلت أصوات لا حصر لها في لحظة واحدة.

- إلى الأرض، انبطحوا أرضاً.

وانطرحت صفوف الجماهير الأولى أرضاً، ولكن بعد أن كانت نيران المدافع الرشاشة قد حصدتها. وبدلاً من أن يلقي الذين ظلوا أحياء بأنفسهم أرضاً، ارتدوا إلى الساحة الصغيرة، حيث لسعهم الرعب، كأنه ذنب تنين، بشواظ من نار ألقاهم أمواجاً متراصة في بحر هائج متلاطم كان مرتداً من الجهة الأخرى للساحة تحت وطأة لسعات موجعة أخرى من ذنب التنين. فقد كانت مرابض المدافع الرشاشة الأخرى تحصدهم حصداً. وحوصر الناس في ما يشبه الدائرة الصغيرة، يلفهم إعصار هائل مجنون. وضاقت حلقة الدائرة، بفعل ضغط النيران من مختلف الجهات، وتمحورت حول بؤرة الانهدام، بالقدر الذي تقطعت فيه أوصال الإطار الخارجي. فكان الحشد كأنه بصلة تقشرها سكين الرشاش تقشيراً لا ترحم فيه ولا تشبع منه. وشاهد الطفل امرأة جاثية على ركبتها، وقد صلبت يديها على صدرها، في بقعة خالية، كأنما كانت تقيها قوة خفية من غزارة الرصاص المنهمر.

وهناك، في تلك البقعة، وضعه خوزيه أركاديو الثاني، وانهار على الأرض دامي الوجه محطوماً، قبل أن تندفع إلى ذلك الفراغ الجموع

الهائلة المجنونة المقموعة بالنار، فتكنسه هو والمرأة الجاثية، والضوء الهابط من فوق، وسماء القيظ المجلودة، والعالم الداعر الذي باعت فيه أورسولا الكثير من الحيوانات الصغيرة المصنوعة من حلويات الكراميلا.

عندما أفاق خوزيه أركاديو الثاني من غيبوبته، ألفى نفسه ملقى على ظهره في ظلام دامس، وكأنه مسافر في قافلة صامتة ليس لها نهاية. وكان شعره قد تشعّث كتلاً متلاصقة بفعل الدم المتخثر، وشعر بالألم ينبعث من كل جزء في عظامه. وطغت عليه الرغبة في النوم. وشرع يعد نفسه لنوم عميق، يغرق فيه ساعات بعد أن تحرر من الرعب والهلع. فاضطجع على جنبه الأقل إيلاماً له. وعندها اكتشف أنه يرقد فوق جثث القتلى الذين غصت بهم عربة القطار، حتى لم يبق فيها مكان فارغ عدا الممر الذي كان في وسطها. وقدّر خوزيه أركاديو الثاني أنه كانت قد انقضت على المجزرة عدة ساعات، لأن حرارة الجثث كانت كحرارة الجبس في أيام الخريف، وقد تماسكت بعضها ببعض كما يتماسك الزبد إذا تجلد. وقد رتّب المعنيون الجثث ونسّقوها تنسيقاً تاماً، لم يكن ينقصهم فيه الوقت. ووضعوها في الاتجاه الصحيح، وعلى أحسن هيئة ممكنة، تماماً كما تنضد قطوف الموز.

وقرّر خوزيه أركاديو الثاني أن يفر من هذا الكابوس. فراح يجرّ نفسه من عربة إلى عربة، باتجاه سير القطار. وتمكن، خلال انسحابه ذاك، وبسبب الأضواء المنسربة من بيوت القرى النائمة على جانبي سكة الحديد، عبر ألواح الخشب الجانبية في القطار، من رؤية الموتى عن كثب. فرأى الموتى من الرجال والنساء والأطفال، الذين كان ينقلهم القطار إلى البحر، ليلقيهم فيه كما تلقى قطوف الموز الفاسدة. ولم يميز من بينهم سوى امرأة كانت تبيع المرطبات في الساحة، والعقيد جافيلان الذي كان ما يزال ممسكاً بحزام الموريليا، برأسه الفضي، وقد لفّه على يده عندما

www.liilas.com/vb3
RAYAHEEN

حاول أن يشق به لنفسه طريقاً ساعة الجنون الكبرى.

ولما وصل خوزيه أركاديو الثاني إلى العربة الأولى، في مقدمة القطار، قفز من القطار في الظلام الدامس، وإذا هو في حفرة، فظل راقداً فيها حتى مرّ القطار بعرباته كلها. وكانت العربات تشكل أكبر قافلة رآها في حياته، فتكاد تبلغ مئة عربة، تشدها قاطرات ثلاث : واحدة في المقدمة، والثانية في الوسط، والثالثة في المؤخرة. وكان القطار يسير بسرعة ليلية خفيفة، بلا نور. فلم يستعمل حتى النور الأحمر والأزرق في المواقف. وكان خوزيه أركاديو الثاني، من موقعه في الحفرة، يرى أشباح الجنود المبهمة على سطوح عربات القطار، وهم رابضون على مدافعهم الرشاشة في وضع قتالي.

بعيد منتصف الليل، انهمر مطر غزير كأنه طوفان. وكان خوزيه أركاديو الثاني يجهل المكان الذي هو فيه. ولكنه كان يدرك أنه إذا سار في الاتجاه المعاكس لسير القطار فسوف يصل إلى ماكوندو.

فانطلق يسير في الظلام الدامس، على غير هدى، نيفاً وثلاث ساعات وقد بلله المطر حتى بلغ منه العظام. واشتد عليه الألم في رأسه فكاد يطرحه أرضاً. وأخيراً استطاع أن يميز البيوت المتطرفة على أشعة الفجر غير الجلية. وجذبته رائحة القهوة المنبعثة من أحد البيوت، فدخل إلى مطبخ، رأى فيه امرأة تحمل بين ذراعيها طفلاً، وقد انحنت فوق الفرن تعمل شيئاً. فخاطبها بقوة قائلاً :

ـ مرحباً. أنا خوزيه أركاديو الثاني بويندِيا.

وذكر اسمه كاملاً، وهو يشدّد على مقاطعه، ربما ليقنع نفسه أولاً أنه ما يزال فعلاً على قيد الحياة. وقد كان على حق في ذلك، لأن المرأة ظنت، وهي ترمقه في الباب : كئيباً، قذراً، مهدّماً، وقد تلطخ رأسه وثيابه ببقع الدم، وخيّم عليه شبح الموت ؛ ظنت أنها إنما تشاهد رؤيا في

منامها. وكانت المرأة تعرفه. فجاءته بغطاء يتلفح به، ريثما يضع ثيابه حدّ الموقد كي تجف. وسخنت له الماء كي يغسل جرحه، ولم يكن أكبر من خدش بسيط. ثم ناولته رباطاً نظيفاً يضمد بها رأسه. وقدمت له فنجان قهوة بلا سكر. فقد كانت تعرف أن آل بويندِيا يشربونها هكذا. وبعد أن نشر ثيابه قريباً من النار. غمغم قائلاً :

ـ لا بدّ أنهم ثلاثة آلاف.

فاستفسرت سائلة :

ـ ماذا؟.

فأوضح لها قائلاً :

ـ الموتى. أظن أن جميع من كانوا في المحطة قد ماتوا.

نظرت إليه المرأة نظرة إشفاق، وقالت :

ـ لم يمت أحد في هذه الناحية. فمنذ زمن مات عمك العقيد. لم يحدث شيء في ماكوندو. وأعاد عليه هذا القول نفسه جميع من رآهم في المطابخ الثلاثة التي مرّ بها في طريقه :

ـ لم يمت أحد.

ومرّ خوزيه أركاديو الثاني بساحة المحطة الصغيرة، فشاهد طاولات باعة المقليات منضدة بعضها فوق بعض. ولم ير هناك أيّ أثر للمجزرة. فقد كانت الشوارع مقفرة، وكان المطر يهطل غزيراً، وكانت البيوت مغلقة، لا يندّ عنها أي مظهر للحياة. وكان أول دليل على وجود الإنسان ذلك الجرس الذي قرع إيذاناً بموعد الصلاة. طرق باب العقيد افيلان، ففتحت له الباب امرأة حبلى، طالما رآها. ثم أغلقته في وجهه، وهي تقول مذعورة :

ـ لقد رحل، عاد إلى بلاده.

وكان عند باب قنّ الدجاج الكبير، المحاط بالأسلاك الشائكة، شرطيان محليان، يعتمران خوذتيهما، ويتسربلان بمعطفيهما المشمّعين وحذاءيهما المطاطيين، جامدين بلا حراك، وكأنهما استحالا إلى تمثالين. وكان الهنود الزنوج السود، في شارعهم الجانبيّ، يرتلون مزامير سبتهم الدينية.

قفز خوزيه أركاديو الثاني من فوق سياج الدار، ودخل إلى البيت من المطبخ. وعندما رأته أمه سانتا صوفيا (التقية)، قالت له بصوت خفيض:

ـ حاذر أن تراك فيرناندا. لقد نهضت من سريرها قبل لحظة.

ثم، وكأنها تفي بعهد لم تعلنه، قادت ابنها إلى غرفة الأواني، حيث رتبت له سرير ملكيادس القديم المخلّع منذ زمن بعيد. وعند الساعة الثانية، بعد الظهر، وبينما كانت فيرناندا في قيلولتها، دفعت له من النافذة طبق طعامه.

وفاجأ المطر أوريليانو الثاني وهو في البيت، فنام. وكان ما يزال هناك عند الساعة الثالثة بعد الظهر، ينتظر توقف المطر. فأخبرته سانتا صوفيا (التقية) سراً بوجود أخيه في البيت. فمضى لزيارته في غرفة ملكيادس.

ولم يستطع أوريليانو الثاني، ولم يشأ، هو أيضاً أن يصدق قصة المجزرة، ولا كابوس القطار الذي شحن فيه الموتى ليلقى بهم في غيابة اليم. فأمس مساء قرأ الناس إعلاناً نشر في كل البلاد، يحيط الناس علماً بأن العمال قد أذعنوا للأمر الصادر لهم بإخلاء المحطة، وقد عادوا إلى بيوتهم في مظاهرة سلمية. وجاء في الإعلان، أيضاً، أن القادة النقابيين استجابوا، بدافع من حسهم الوطني العالي، فاختصروا مطالبهم إلى اثنين، هما: إصلاح الخدمات الطبية، وبناء مباول في المناطق السكنية. وشاع، فيما بعد، أن القادة العسكريين، عندما حصلوا على موافقة العمال، أسرعوا بنقل محتواها إلى السيد براون، الذي أعلن، بدوره، أنه

لا يكتفي بقبول الشروط الجديدة، بل زاد على ذلك بأن أقام وليمة للسكان جميعاً، دامت ثلاثة أيام، احتفالاً بانتهاء النزاع. وعلى الرغم من ذلك، طلب إليه العسكريون تحديد موعد لتوقيع الاتفاق. فنظر من النافذة إلى الجوّ، الذي كانت تومض فيه البروق، وتأمل طويلاً، ثم قال وكأنه يتوقع أمراً محتوماً:

ـ عندما يتوقف المطر. فما دام المطر ينهمر سوف نعلق الأعمال والأنشطة جميعاً.

وقد مضى على توقف المطر ثلاثة أشهر، وقد اشتد الجفاف في المناطق. ولكن، ما إن أعلن السيد براون قراره ذاك، حتى تدفق وابل كأنه طوفان غمر مناطق الموز كلها. وهو المطر الذي واجه خوزيه أركاديو الثاني في طريقه إلى ماكوندو. وانقضى أسبوع على ذلك التاريخ والمطر ينهمر مدراراً. وكررت الحكومة إعلانها الرسمي آلاف المرات، وعممته على كل أرجاء البلاد، وبكل وسائل الاتصالات التي تملكها، حتى انتهى الأمر بالناس إلى تصديق ذلك الإعلان: «لم يمت أحد». وقد عاد العمال، راضين قانعين، إلى عائلاتهم. وقد علقت شركة الموز كل أعمالها حتى ينقشع المطر. واستمرّ العمل بالأحكام العرفية، نزولاً عند الحاجة الناشئة عن الظروف الطارئة، والإجراءات القسرية اللازمة، بسبب الأمطار الدائمة. ولكن الجنود كانوا داخل ثكناتهم. وكانوا في النهار يسيرون في الطرقات، خائضين في السيول التي كانت تغمرها. طاوين أرجل بناطيلهم، ويلعبون بزوارق الصغار مع الأطفال. أما في الليل فكان الجنود يخلعون أبواب البيوت، في ساعات منع التجول، بأعقاب بنادقهم، ويداهمون المشبوهين في أسرّة نومهم، فيعتقلونهم ويخرجونهم من بيوتهم، ثم يصحبونهم في رحلة لا عودة منها.

كانت عمليات البحث والمطاردة والإعدام، لمن كانوا يسمون

المشاغبين، والقتلة، ومثيري الفتن، ومشعلي الحرائق، وسواهم من الخارجين على القانون، الذين شملهم المرسوم (رقم ٤)، ما تزال متواصلة وعلى اشدها. ولكن العسكريين كانوا لا يعترفون بما يفعلونه حتى لذوي الضحايا، الذين كانوا يحتشدون أمام مراكز القيادة العامة بحثاً عن الأخبار. كان الضباط يقولون لهم ويعيدون القول :

ـ لا بدّ أنكم كنتم تحلمون. فلم يحدث في السابق، ولا يحدث الآن، ولن يحدث شيء في ماكوندو. فهذه بلدة سعيدة. وهكذا استطاعوا، بهذه الطريقة، القضاء التام على القادة النقابيين.

لم يبق من القادة النقابيين واحد على قيد الحياة سوى خوزيه أركاديو الثاني. وفي ليلة من ليالي شهر شباط (فبراير)، سمع أهل البيت الضرب بأعقاب البنادق على باب الدار قوياً مدوّياً. وكان أوريليانو الثاني ما يزال ينتظر ريثما يتوقف المطر كي يغادر البيت. ففتح الباب، وإذا به أمام ستة جنود بإمرة ضابط. كانوا مبتلين من المطر، ويقطرون ماء. ودون أن يتفوه واحد منهم بكلمة، فتّشوا الدار غرفة غرفة، وخزانة خزانة، ابتداء بالقاعتين وانتهاء بالمخزن. وأفاقت أورسولا عندما أضاؤوا النور في غرفتها. فلم تنبس بكلمة، ولم تدع نفسها يعلو على مألوفه، وأبقت على إصبعيها متصالبتين طوال فترة التفتيش، تديرهما باتجاه الجنود، حيثما يفتشون، تتبعهم بهما في غدوّهم ورواحهم. واستطاعت سانتا صوفيا (التقية) أن تنذر خوزيه أركاديو الثاني، الذي كان نائماً في غرفة ملكيادس. ولكنه أدرك أن الفرار بات مستحيلاً. فأغلقت سانتا صوفيا الباب، بينما ارتدى هو قميصه وحذاءه، وجلس على حافة السرير ينتظر قدوم الجنود. كانوا آنذاك يفتشون مشغل الصياغة، فبعد أن أمر الضابط بخلع الغال، أدار نور مصباحه في أرجاء الغرفة، فشاهد الطاولة، والخزانة الصغيرة، وقوارير الأحماض، والدوارق والأدوات، وما زال كل

منها في المكان الذي تركه فيها صاحبها. فأدرك أنَّ أحداً لا يسكن تلك الغرفة.

وسأل الضابط أوريليانو الثاني سؤالاً ذكياً، ما إذا كانت مهنته الصياغة. فأوضح له الأخير أنه الآن يقف في مشغل العقيد أوريليانو بويندیا. فعلق الضابط قائلاً :

ـ آه. هذا هو إذن !!.

ثم أضاء الأنوار جميعاً، وأمر بإجراء بحث دقيق، حتى لم تفتهم السمكات الذهبية الثماني عشرة الصغيرة. التي لم يتمّ صهرها، وكانت مخفية وراء الزجاجات والقوارير في صفيحة التنك. فتفحصها الضابط واحدة واحدة، على الطاولة. وعاودته، في تلك اللحظة، إنسانيته، فقال :

ـ أودّ أن آخذ واحدة منها. إذا سمحت، فقد كانت، في وقت من الأوقات، دليل تعارف، بين الثوار. ولكنها الآن تراث أثريّ.

وكان ذلك الضابط شاباً، أو بالأحرى يافعاً، ليس فيه سمة من سمات الجبن، وفي طبيعته شيء من الود والخلق الطيب، وإن كان لم يبد عليه حتى ذلك الحين. فأعطاه أوريليانو الثاني السمكة الصغيرة. فدسها الضابط في جيب قميصه، وقد لمعت عيناه بفرح طفولي، وأعاد السمكات الصغيرات الأخرى إلى الصفيحة، وأرجعها إلى حيث كانت. وقال :

ـ إنها لحظة وذكرى لا تقدّر بثمن. فقد كان العقيد أوريليانو بويندیا واحداً من أعظم رجالنا.

ولكن إنسانيته المفاجئة لم تعدّل شيئاً من سلوكه الوظيفي. وتشبثت سانتا صوفيا (التقية) بآخر أمل لها أمام غرفة ملكيادس، بعد أن أعادت

إغلاقها بالغال. وقالت :

ـ منذ قرن لم يسكن أحد في هذه الغرفة.

ولكن الضابط أمر بفتحها، وأجال فيها ضوء مصباحه. وشاهدت سانتا صوفيا (التقية) وأوريليانو الثاني عيني خوزيه أركاديو الثاني الغريبتين لحظة مرّ النور على وجهه. وأدركا أن تلك اللحظة كانت نهاية قلق وبداية قلق آخر، وألاّ راحة لهما، بعد ذلك، إلاّ بالرضا بما هو واقع. وتابع الضابط إجالة ضوء المصباح في الغرفة، مفتشاً. فلم يبد عليه أي اهتمام ذي معنى. وقد اكتشف الاثنين والسبعين إناء المكدسة في الخزائن، بعضها فوق بعض. وعندها أضاء نور الغرفة. وكان خوزيه أركاديو الثاني ما يزال جالساً على حافة السرير، متأهباً للقفز إلى خارج الغرفة، مهيباً جليلاً حالماً أكثر منه في أية ساعة من ساعات حياته.

وبانت في مؤخرة الغرفة الرفوف الكثيرة، وقد صفّت عليها الكتب القديمة المهترئة، وقراطيس الورق. وطاولة العمل المنظمة، والحبر الذي كان يبدو جديداً في المحابر. وكان الهواء يعبق بنفس النقاء، وبالحصانة والمناعة ضد الغبار والخراب، مما عرفه أوريليانو الثاني في طفولته، ووحده العقيد أوريليانو بوينديا لم يدركه. ولكن الضابط لم يكترث إلا بالأواني، فسأل :

ـ كم شخصاً يعيش في هذه الدار.

ـ خمسة.

وكان واضحاً أن الضابط لم يفهم. فوقف صامتاً، وقد استقرّ نظره على المكان الذي يرى فيه أوريليانو الثاني وسانتا صوفيا (التقية)، اللذين كانا يريان خوزيه أركاديو الثاني، الذي كان يدرك بدوره أن الجندي كان ينظر إليه دون أن يراه. ثم أطفأ الضابط النور، وأغلق الباب. وأدرك أوريليانو الثاني، عندما سمع ما قاله الضابط للجنود، أن ذلك الضابط

الشاب كان يرى الغرفة بعيني العقيد أوريليانو بوينديا. فقد سمعه يقول للجنود :

ـ من الواضح أن أحداً لم يسكن في تلك الغرفة منذ مئة سنة على الأقل. فلا بد أن تكون هناك أفاعٍ تعيش فيها الآن.

وعندما انغلق باب الغرفة، أيقن خوزيه أركاديو الثاني أن الحرب قد انتهت. فلقد حدثه العقيد أوريليانو بوينديا، لسنين خلت، عن سحر الحرب، وقدّم له أمثلة استقاها من خبراته. وآمن بأقواله. ولكنه، في تلك الليلة، عندما نظر إليه العسكريون، جالساً أمامهم، دون أن يبصروه، وهو يفكر بالرعب والتوتر الذي عاناه في الشهور الأخيرة، والحياة البائسة التي قضاها في السجن، توصل إلى نتيجة مفادها أن العقيد أوريليانو بوينديا لم يكن مهرجاً أو غبياً مغفّلاً، ولقد ذكر كلاماً كثيراً كي يوضح ما كان يشعر به في الحرب، مع أن كلمة واحدة كانت كافية، وهي : الخوف، ولقد خبر خوزيه أركاديو الثاني الخوف في تلك الليلة وقبلها. ففي غرفة ملكيادس، وبينما كان النور السماوي يحميه، وعلى وقع تساقط المطر، وتحت وطأة الشعور بأنه لا يُرى، شعر بالراحة التي لم يعرفها لحظة واحدة طوال حياته الماضية، على الرغم من أن خوفه من أن يدفن حياً كان ما يزال يسيطر عليه.

وباح بما كان يعتمل في صدره من مشاعر إلى سانتا صوفيا، بينما كانت تنقل إليه طعامه، كعادتها يومياً. فوعدته بأن تبذل ما تستطيع كي تبقى على قيد الحياة أطول مما تبيحه لها قواها، لتطمئن إلى أنه لن يدفن إلاّ بعد موته. وعندما تخلّص خوزيه أركاديو الثاني من ذلك الخوف، كرّس وقته لقراءة صحائف ملكيادس ورقاعه، المرة تلو المرة. وكان استمتاعه بها يزداد ازدياداً مطرداً مع ازدياد غموضها عليه وانغلاقها على فهمه.

واعتاد صوت هطول المطر، فقد غدا عنده، بعد شهرين، صورة أخرى من صور الصمت. ولم يكن يكسر حدّة وحدته سوى دخول سانتا صوفيا وخروجها. ولهذا رجاها أن تضع له الطعام على حافة الشباك، وأن تعيد الغال إلى الباب.

وهكذا نسيته بقية العائلة، بمن فيهم فيرناندا، التي لم تر ما يمنع بقاءه في البيت، خصوصاً بعد أن علمت أن الجنود نظروا إليه دون أن يروه.

وبعد ستة أشهر من العزلة، رحل الجيش عن ماكوندو، فانتزع أوريليانو الثاني الغال، لأنه كان بحاجة للحديث مع شخص آخر ريثما يتوقف هطول المطر. وعندما فتح الباب صفعته رائحة الأواني القذرة، لأنها استعملت جميعاً غير مرة. ولكن خوزيه أركاديو الثاني، وقد أصابه داء الثعلب، لم يكن ليأبه لتلك الروائح الكريهة التي أحالت جوّ الغرفة إلى جوّ منتن غير قابل للتنفس. فاستمر في قراءة صحائف ملكيادس المبهمة، وإعادة قراءتها. وكانت تضيئه الأنوار الملائكية. ولم يكن يرفع بصره عن الصحائف إلا لماماً، وخصوصاً عندما يحس بفتح الباب.

وقرأ أخوه، أوريليانو الثاني، في نظرته قدر جده المحتوم واضحاً جلياً في عيني أخيه. قال خوزيه أركاديو الثاني :

ـ كانوا أكثر من ثلاثة آلاف. أنا على يقين أنهم جميعاً توافدوا إلى المحطة.

ولم يضف إلى ذلك كلمة أخرى.

(١٦)

استمرّ هطول المطر أربع سنين وأحد عشر شهراً ويومين اثنين. وتخللت هذه المدة فترات كان المطر خلالها يتساقط رذاذاً، يتفاءل الناس به. وكأنهم يمرون بما يشبه النقاهة من مرض ألمّ بهم. فاحتفلوا بزوال المطر. ولكنهم اعتادوا، بعد ذلك، أن تلك الفترات من توقف المطر لم تكن دليل نكسات. فقد كانت السماء تلقي ما في جوفها، اندلاق المياه من أفواه القرب، في جلجلة وهزيم رعد ووميض برق، وعواصف وزوابع لا تبقي ولا تذر. ويرسل الشمال عاتي عواصفه، فتقتلع سقوف البيوت، وتهدم جدرانها، وتستأصل الأشجار من جذورها. وكما كان يحدث أيام مرض الأرق، الذي تذكرته أورسولا كثيراً في الأيام الأخيرة، كان البلاء نفسه يقود إلى ابتداع الوسيلة للتغلب على السأم. وكان أوريليانو الثاني من أكثر الذين بذلوا جهوداً جبارة للتغلب على الفراغ.

وقد مرّ بالبيت، ذات يوم، لسبب غير ذي بال من الأسباب. واتفق ذلك مع الليلة التي أطلق فيها السيد جاك براون العنان لعاصفة المجزرة. فقدمت له فيرناندا مظلة قديمة عثرت عليها على أحد الرفوف، علّه يتقي بها المطر في أثناء عودته. ولكنه قال لها :

ـ لا حاجة بي إليها. سوف أمكث هنا حتى ينقشع الغيم ويتوقف المطر.

ولم يكن مضطراً لذلك، إذ كان يستطيع أن يذهب. ولكنه اختار